

نحلة قاسم الصباغ



لابد لكل ظاهرة جديدة أو تغيير في المجتمع من اسباب وعوامل أدت الى وجودها ،
ويبدو ان مظاهر التحول التي طرأت على هذه البلاد تعود في جذورها الى عوامل سياسية
تفرعت منها ظواهر اقتصادية واجتماعية .
وبالنسبة للسبب الاول نرى سياسة الاتجاه نحو الفتوح خارج الجزيرة كانت عاملا لتدفق
أموالا كثيرة الى هذه البلاد ومن ثم عاملا للتمازج والاختلاط بين العرب والعناصر الاجنبية
من اهل البلاد المفتوحة وازضافة لذلك ، السياسة الاموية التي اتبعها حكام بني امية باغداق
الاموال الكثيرة على اهل البلاد لاسترضائهم وتهئية الجو الاجتماعي الجديد . ولما كانت
للاموال الكثيرة أهمية في ظاهرة التحول الاجتماعي فلا بد من القاء نظرة عابرة على الاحوال
المالية والمعاشية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين لتوضيح الامور قبل العبور الى
العصر الاموي الذي بدأت فيه معالم التغيير .

□ الاحوال المالية في عصر الرسالة

تعتبر بلاد الحجاز صحراوية فقراء ، قليلة الموارد الزراعية ، وقد التجأ بعض أهلها - قبل
الاسلام - لاحتراف التجارة .
لذا نرى ان الدولة الفتية التي انشأها النبي محمد ﷺ لم يكن لديها موارد مالية معينة
وانما غلب عليها الجهد أحيانا فنرى الرسول ﷺ يضطر في تجهيز بعض حملاته
للاستدانة^(١) فضلا عما قدمه بعض الاغنياء مثل عثمان بن عفان^(٢) وأبو بكر الصديق^(٣)
وعبدالرحمن بن عوف^(٤) وغيرهم .

(١) ابن الاثير - أسد الغابة ج ٣ ص ١٥٥ طبعة طهران - استدان الرسول في حنين من عبدالله بن ابي ربيعة بضعة

عشر ألفاً ثم ردها اليه البلاذري - انساب ج ١ ص ٣٦٣

(٢) البلاذري - انساب الاشراف ج ١ ص ٣٦٨ ، الاصبهاني - حليه ج ١ ص ٥٨١ وح ٦ ص ١٣٣ .

(٣) البلاذري - انساب ج ١ ص ٢٦١ ، رسائل الجاحظ ص ٩ جمعها ونشرها حسن السندوي

(٤) ابن الاثير - أسد الغابة ج ٣ ص ٣١٥ .

فالامة كانت في ضيق اقتصادي شديد لعدم وجود موارد مستمرة وثابتة ولكن الاحوال أخذت بالتغير التدريجي بعد الهجرة الى المدينة وعلان مبدأ المؤاخاة التاريخي بين المهاجرين والانصار الذين اعانوهم مالياً وآثروهم في بعض الاحيان على انفسهم ، فعندما تهيأت أحوال بني النضير للرسول ﷺ استشار الانصار حول كيفية توزيعها ، ولكن الانصار رفضوا نصيبهم وآثروا المهاجرين^(١) ثم تلاها غنائم غزوة خيبر سنة ٦ هـ التي قسمها الرسول بين الناس بعد أن عزل نصفها لنوائبه ، فانتعشت أحوال المسلمين حتى قال عبدالله بن عمرو (رض) :

(ماشبعنا حتى فتحت خيبر)^(٢) وتلاها غنائم الطائف- وبذا تمكنت الحكومة الناشئة أن تسير امورها واستطاع أفرادها ان يحصلوا على مايكفيهم من ضروريات حياتهم .

● العصر الراشدي

وقد انتعشت احوال المسلمين نسبياً في العصر الراشدي ، نظراً لقيامهم بالفتوح خارج الحجاز وما رافق ذلك من غنائم ، حيث ان اول مال استلمه ابو بكر من البحرين وقسمه بين الناس جميعاً على السواء^(٣) وتلى ذلك غنائم العراق^(٤) . ورغم ذلك فالفتوح في خلافة ابي بكر كانت محدودة ، وكذلك الغنائم التي لم تكن لتغطي كافة احتياجات السكان المعاشية . - ويبدو ان الخليفة ابا بكر قد توقع استمرار الفتوح وتوسعها وكثرة الاموال ثم الاختلاط بالاجانب والاقبال من منهم لذا نراه يخشى عاقبة ذلك بقوله لعبد الرحمن بن عوف : (رأيت الدنيا قد اقبلت ولما تقبل وهي جاثية وستخذون ستور الحرير ونضائر الديباغ وتألون ضجائع الصوف الازري كأن احدكم على حسك السعدان والله لئن يقدم احدكم فيضرب عنقه في غير حد خير له من ان يسبح في غمرة الدنيا)^(٥)

(١) يحيى بن آدم- الخراج ص ٢٠ .

(٢) الديار بكرى- تاريخ الخميس ج ٢٠ ص ٥٦ .

(٣) يعقوبي - التاريخ ج ٢ ص ١٢٤ .

(٤) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ١٣ ، ص ٣-٤ حوادث سنة ١٢ صالح ابن الوليد اهل حصن بادقلي على (١٩٠)

الف وصالح اهل الحيرة على تسعين الف ومائة الف درهم .

(٥) الاصبهاني - حلية الاولياء ج ١ ص ٣٤ .

- وقد توسعت الفتوح في عهد الخليفة عمر ومعها تدفقت الاموال الى الحجاز وقد اوردت لنا الكتب التاريخية ارقاما خيالية لهذه الاموال . ففي اول خلافته جاء ابو هريرة بخمسمائة الف . فخطب عمر في الناس وأعلمهم بها وقال لهم (ان شئتم نعد عدداً وان شئتم نكيله كيلاً)^{١١} .

وجرى العمل ان يرسل الخمس فقط الى المدينة وتقسّم الاربعة اجماس بين المجاهدين ففي المدائن اصاب الفارس اثنا عشر ألفاً^{١٢} . وفي جلولاء تسعة الاف وتسعة دواب ، وعن الشعبي ان الخمس كان ستة الاف الف ارسل الى المدينة^{١٣} ، وقد اصاب الفارس في نهاوند ستة الاف والراجل الفين .^{١٤}

وروى عن ابن عباس قوله (دعاني عمر فاذا حصير بين يديه عليه الذهب منشور نشر الحناء)^{١٥} ، وحين فتح عمرو بن العاص مصر صالح أهلها على ثلاثة عشر الف دينار ، وفي رواية أخرى ان جبايتها كانت اربعة عشر الف الف دينار من خراج رؤوسهم^{١٦} وذكر ان خراج الكوفة بلغ في خلافة عمر (رض) في أحد الاعوام ثمانين الف الف درهم وفي العام الذي تلاه عشرين ومائة الف الف درهم وكان صاحب الكوفة يحمل الى المدينة نحو عشرين أو ثلاثين الف^{١٧}

هذا فضلا عن الكنوز التي غنمها المسلمون في معارك الفتوح ، فقد روى الطبري^{١٨} :
(ان المسلمين اصابوا يوم المدائن بهار كسرى وكانوا يعدونه للشتاء اذا ذهب الرياحين ، فكانوا اذا ارادوا الشرب شربوا عليه فكانهم في رياض ، بساط ستين في ستين ارضه بذهب ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء ذهب) وقد أرسله القائد سعد الى الخليفة عمر الذي قسمه بين الناس فاصاب علي (رض) منه قطعة باعها بعشرين الف دينار ، وقد رأى العرب في المدائن أيضاً قباب تركية مملوءة سلالا مختمة بالرصاص فظنوا

(١) البلاذري - فتوح ص ٤٣٩ .

(٢) الطبري - تاريخ الامم ج ٤ ص ١٧٧ لم يذكر نوع العملة .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٨٢ .

(٤) ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٦

(٥) ابو عبيد - الاموال ص ٦١٩

(٦) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٥٠

اليعقوبي - التاريخ ج ٢ ص ١٤٤

(٧) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٣

(٨) الطبري - تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ١٧٨

انها طعاماً فاذا هي آتية من الذهب والفضة وقسمت بين الناس^(١)
وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قد قتل صاحبها بثمانين الف دينار ولبس
سلبه وقيمتة خمسمائة الف وخمسون الف^(٢) ، كما غنم أحد الجنود في القادسية أيضاً
راية كسرى فعوض عنها بثلاثين الف دينار وقيل ان قيمتها الف الف ومائتي الف ، كما
وجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية أيضاً ابريق ذهب مرصع بالجواهر فلم يعرف أحد
قيمتة فاعطاه للقائد سعد بن ابي وقاص الذي باعه بمائة الف دينار^(٣)

ويبدو مما تقدم ان اموالاً كثيرة انضبت في هذه البلاد . ومما لا شك فيه ان احوال المجاهدين
كانت أفضل من أهل البلاد . وقد وصف كثرة الاموال ابن خلدون بقوله : (ان بحار الرفه
زخرت عليهم حتى كان يقسم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون الف من الذهب)^(٤)
وكان لا بد لهذه الاموال الواردة من تنظيم عملي في تقسيمها . وبعد ان استشار الخليفة عمر
عدداً من ذوي الرأي . أخذ برأي الوليد بن هشام بن المغيرة بتدوين الديوان وتجنيد الجند^(٥)
وقد خالف عمر خطة سلفيه في تقسيم الاموال وعمر له اجتهاده في ذلك وقصده بالتفاضل
بالاعمال كوسيلة للتقدم والعمل الجاد . ولذا نرى انه فرض لأهل بدر خمسة آلاف . ولمن
بعد واقعة بدر الى الحديبية اربعة الاف ثم بعد الحديبية الى ان اقلع ابو بكر عن حروب
الردة ثلاثة الاف . ولأهل القادسية والشام الفين ومضى في هذا الترتيب الذي راعى
فيه سابقة الجهاد والقراية من رسول الله ﷺ . ولكنه قال فيما بعد : (لقد هممت ان
اجعل العطاء اربعة الاف الفأ يجعلها الرجل في أهله والفا يزودها معه والفا يتجهز بها والفا
بترفق بها)^(٦) مما يدل على انه قرر العودة الى مبدأ المساواة في العطاء .

وقد استمرت الفتوح نسبياً في عهد عثمان واستمر معها تدفق الاموال الى هذه البلاد
فاين الاثير^(٧) يذكر ان عمرو بن العاص صالح اهل برقة على ثلاثة عشر الف دينار جارية .
وصالح عبدالله بن ابي سرح اهل افريقية على الف الف وخمسمائة الف دينار وفي رواية
البلاذري^(٨) ان ابن ابي سرح صالح بطريق افريقيا على ثلثمائة قنطار من الذهب .

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٥

(٢) الابشيهي - المستطرف ج ٢ ص ٤٦

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٦

(٤) المقدمة ص ١٧٧

(٥) البلاذري - فتوح ص ٤٣٦

(٦) الطبري - تاريخ الرسل ج ٢ ص ٦١٥ دار المعارف ٩٦٢ . البلاذري - فتوح ص ٣٨

(٧) الكامل - ج ٣ ص ٩١ ط . اليعقوبي - التاريخ ج ٢ ص ١٤٣

(٨) فتوح البلدان ص ٢٢٧ - ٢٢٨

وصالح الوليد بن عقبة اهل اذربيجان على ثمانمائة الف درهم ، واخذ المسلمون من اهل قبرص جزية سنوية قدرها سبعة الاف دينار ، كما صالح ابن عامر اهل مرو على ستة الاف الف^(١) وصالح الاحنف اهل بلخ على اربعمائة الف وقيل سبعمائة الف^(٢) مما تقدم نرى انه لا بد ان يحدث نوع من التغيير في حياة السكان من الفقر والجهد وما فرضته على بعضهم ظروف الهجرة الى حياة مطمئنة يصرف فيها معاشهم بنظام موضوع فضلاً عما يحصل عليه المقاتلون من الغنائم في ساحات الحرب ، قال خباب احد صحابة رسول الله ﷺ (ما علم احداً لقي من البلاء ما لقيت لقد مكثت على عهد رسول الله ﷺ) ما أجد درهماً وان في ناحية بيتي هذا اربعين الف درهم^(٣) وصورة التغيير واضحة ايضاً في قول علي ابن ابي طالب (رض) : (لقد رأيتني واني لأربط الحجر على بطني من الجوع وان صدقتي لتبلغ اليوم اربع الاف دينار)^(٤)

- ويبدو لنا ان التغيير - في عهد الخليفتين ابي بكر وعمر - لم يكن واضحاً وكبيراً حيث ان الطابع الديني في التزهد بالحياة كان قوياً في النفوس لدى الطبقة الحاكمة وغالبية السكان . فضلاً عن سياسة الشدة التي اتبعها الخليفة عمر في محاسبة العمال والقواد حالت دون اتحادهم فضلاً عن سياسة الشدة التي اتبعها الخليفة عمر في محاسبة العمال والقواد حالت دون اتجاهمهم الى استغلال الاموال .

- فنراه يحاسب خالد بن الوليد ويناصفه امواله^(٥) وخالد مما لا يخفى بلاؤه في الاسلام وثمانون الف درهم (وهو حاصل ماله) لم يكن شيئاً يذكر اذا علمنا ما قدمته فتوحاته في الجبهتين من غنائم وأموال تقدر على الملايين الدنانير الى بيت مال الدولة .

والروايات عديدة في محاسبة عمر لعماله - فهو يكتب لواليه على مصر عمرو بن العاص : - (انه ظهر من مالك ما لم يكن من رزقك ولا كان لك مال قبل ان استعملك فاني لك هذا .)

(١) الطبري - تاريخ الرسل ج ٥ ص ٤٥ ، ٥٣ ، ٧٧ حوادث سنة ٣٢

(٢) ابن الاثير - الكامل ج ٣ ص ١٢٦ .

(٣) الاصبهاني - حلية الاولياء ج ١ ص ١٤٤

(٤) ابن الاثير - اسد الغابة ج ٤ ص ٢٣ .

(٥) الطبري - تاريخ الرسل ج ٤ ص ٥٦

ثم يرسل اليه محمد بن سلمه فيشاطره امواله^(١) (وفعل مثل ذلك مع ابي هريره والي البحرين وكتب الى ابي موس الاشعري كتابا كله توبيخ فيه (قد بلغ امير المؤمنين انه فشيت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومشربك ليس للمسلمين مثلها ، فاياك يا عبدالله ان تكون كالبهيمة همها في السمن وفي السمن حتفها ، واعلم ان العامل اذا زاغ زاغت رعيته واشقى الناس من يشقى الناس به)^(٢) . فعمرك ان يحاسب العمال ليس في حالة استغلال الاموال فقط وانما على الملبس والمطعم والمشرب ايضا فهو عندما عين عمار بن ياسر على الثغور عثمان بن عفيف على الخراج وعبدالله بن مسعود على بيت المال فرق لهم في كل يوم شاة شطرها وسواقطها لعمار والشرط الآخر لعبدالله وعثمان^(٣) ونراه يأخذ من بعض الافراد زيادة عما يستحقون من عقار ، فهذا بلال ابن الخريث المزني اقطعه الرسول ﷺ ارضا كبيرة فاستدعاه عمرو وترك له قسما من الارض كفاية له ثم اخذ الباقي وقسمه بين المسلمين^(٤))

— وقد استخدم سلطته السياسية في منع كبار المهاجرين من الخروج الى الامصار، وعندما ضاقوا ذرعا بذلك شكوه فبلغه ذلك وقام بينهم قائلا موضحا قصده (...ألا ان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فاما ابن الخطاب حي فلا اني قائم دون شعب الحرة اخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار)^(٥) فضلا عن هذه السياسة فان روح الزهد كانت سائدة في نفوس عدد كبير من ذوى الثروات. ومما يروى في هذا الصدد (ان طلحة باع من عثمان ارضا بسبعمئة الف درهم فلما جائه المال قال ان رجلا بيت عنده هذا لا يدري ما يطرقه لغرير بالله تعالى — ثم قسمه بين المسلمين)^(٦) (وساله رجل برحم بينهما فقال له — (هذا حائطي أعطيت فيه مائة الف درهم فان شئت فالمال وان شئت فالخائط) وقال عنه زياد بن جرير (رأيت طلحة بن

(١) ابن ابي الحديد — شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ ط دار احياء الكتب العربية ١٩٥٩

(٢) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج ١٩ ، ص ٣٤

(٣) المسعودي — مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٣ والثغر كل مكان قريب من ارض العدو — ياقوت — معجم الادباء ج ٢ ص ٧

(٤) الاصبهاني — حلية ج ١ ص ٤٩

(٥) الطبري — تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ١٣٤ حوادث سنة ٣٥ هـ

(٦) الاشبيهي — المستطرف ج ١ ص ١٥٧

عبيد الله فرق مائة الف درهم في مجلس واحد وانه ليخبط ازاره بيده (١١)

- وكان عطاء سلمان الفارسي خمسة الاف ولكنه كان يحتطب في عباءه واذا خرج عطاؤه أمضاه ويأكل من سفيف يده (١٢)

والروايات عديدة حول ما كان يتصدق به عبدالرحمن بن عوف منها انه باع أرضاً له من عثمان بأربعين الف دينار وقسم المال في بني زهرة وفقراء المسلمين وامهات المؤمنين (١٣) وتصدق في يوم واحد بمائة وخمسين الف دينار (١٤) كما تصدق بسبعمائة بغير محملة بالبسر والدقيق والطعام (١٥) وخير مثال لاحوال المسلمين عندما فتح عمرو بن العاص مصر وأرسل اليه المقوقس وفدا للمفاوضة ولكن عمرًا نجس الرسل عنده يومين ليروا أحوال المسلمين وسمح لهم بالتجول في معسكرهم ، فعاد الرسل الى المقوقس ووصفوا له أحوال المسلمين بقولهم :

(رأينا قوماً الموت أحب الى أحدهم من الحياة والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما تعرف رفيعهم من وضعيعهم ولا السيد من العبد واذا حضرت الصلاة لا يتخلف منهم واحد) (١٦)

هذا الوصف خير دليل على نوعية الحياة الاجتماعية للمسلمين في عهد الخليفة عمر .

○ التغيير في عهد الخليفة عثمان :

وبدأ التغيير يظهر تدريجياً في عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي يختلف عن سلفه في امور شتى ، حيث أعطى الناس اللين والسماحة بعد الشدة والسعة ، وقد ذكرنا سابقاً الخليفة عمر كان يمنع كبار المهاجرين من الانتقال الى البلاد المفتوحة لكي لا تفتنهم

(١) الايشي - المستطرف ج ١ ص ١٥٨

(٢) ابن سعد - الطبقات ج ٤ ص ٦٢

(٣) الاصبهاني - حلية الاولياء ج ١ ص ٩٨-٩٩

(٤) العقاد - عثمان بن عفان ص ١٢٩-١٣٠

(٥) ابن الاثير - أسد الغابة ج ٣ ص ٣١٥

(٦) عبد الحميد بخيت - عصر الخلفاء الراشدين ص ١٣٥

حضرارتها^(١) ولكن عثمان خالف هذه السياسة وسمح لهم بالخروج الى الامصار . وقد يكون لتساحجه ولينه أثر في ذلك وان لم يكن يتوقع في خروجهم أية نتائج سيئة . ولكنهم عندما (رأوا الدنيا وآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام ...) ثم يضيف الطبري قوله : (ولم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش اموالا في الامصار)^(٢)

فضلا عن ذلك فان الخليفة الجديد زاد الناس في اعطياتهم مائة مائة حتى قيل عنه انه (اشبع الناس في يوتهم)^(٣)

وترد الروايات عن عطايا عثمان الكثيرة لعدد من الافراد فيذكر انه كان يستلف من بيت المال مئات الآلاف ليعطي من يطلب منه ذلك^(٤) . فقد اعطى طلحة في خلافته مائتي الف دينار^(٥) واعطى مروان خمس افريقية وغيره من اقربائه^(٦) .

وقد ازداد الناس في عهده في تجميع الاموال واقتناء العقارات وبذا ظهرت طبقة من ذوي الثروات الكبيرة . منهم على سبيل المثال الزبير الذي يذكر عنه الازعاعي انه كان لديه الف مملوك يؤدون له الضريبة ولا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها . وباع له دار بمئة الف درهم وتصدق بها في سبيل الله^(٧) . وقال عنه المسعودي^(٨) انه ابنى داراً بالبصرة ودوراً أخرى بمصر والكوفة والاسكندرية . ويبدولنا من مبلغ الصدقات التي ينفقها انه كان يملك اموالا عظيمة فيذكر ان له اربع نسوة أصاب كل واحدة منهن من تركته الف الف ومائتي الف^(٩) . ومنهم ايضا طلحة الذي بنى داره المشهورة بالكوفة بدار

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ١٣٤ حوادث سنة ٣٥هـ

(٢) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ١٣٤

(٣) نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥

(٤) البلاذري - انساب الاشراف ج ٥ ص ٥٨

(٥) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٩ - ٣٨

(٦) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥ - مروان بن الحكم

(٧) ابن الاثير - اسد الغابة ج ٢ ص ١٩٨

(٨) مروج الذهب - ج ٢ ص ٣٣٣

(٩) الاصبهاني - حليه الاولياء ج ١ ص ٩١

الطلحيتين ويذكر ان غلته من الطرق الف دينار يوميا وقيل اكثر وقد شيد له قصرًا بالمدينة بالآجر والبص والساج^(١) ووجد في تركته ثلاثمائة بهار من الذهب والفضة.^(٢)

- كان عبدالرحمن بن عوف من الاثرياء المعروفين حيث ان أصل ماله من التجارة والروايات عديدة عن أمواله وكثرتها فقد ذكر المسعودي^(٣) انه ابنتى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وقد خلف مالا عظيما من ذهب قطع بالفؤوس الى غير ذلك من الاموال^(٤) وكذلك عبدالله بن عامر الذي اشترى سوق البصرة من ماله ووهبها لاهلها لا يؤدون عليها خراجا^(٥) كما اتخذ بمكة حياضا ونحلا وأقام النباح وهي قرية على الطريق بين مكة والبصرة وقريتين أخريين انبط فيها العيون وغرس النخيل فيهما.^(٦)

ومنهم خالد بن سعيد الذي كان يقول اذا برقت السماء : (امطري حيث شئت فما تمطرين الا على بلد لي فيه مال)^(٧) وقد ذكر سعيد بن المسيب ان زيد بن ثابت ترك من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بقيمة مائة الف دينار^(٨) ويعتبر عمرو بن العاص من الاغنياء حيث خلف ثلثمائة الف دينار وخمسة وعشرون الف دينار ومن الورق الف الف درهم وضيعته المعروفة بالرهط قيمتها عشرة الاف درهم^(٩). وقيل عن الخليفة عثمان (رض) انه كان عند خازنه يوم قتل خمسون ومائة الف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه مائة الف دينار وخلف خيلا وابلا كثيرة^(١٠)

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٣

ابن الاثير - اسد الغاية ج ٢ ص ٦١

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٩ البهار مزود من جلد الجمل.

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٣

(٤) ابن الاثير - اسد الغاية ج ٣ ص ٣١٧

(٥) السكري - المحبر ص ١٥٠

(٦) ابن قتيبة - المعارف ص ١٦٤ ط جوتنجن - الازرقى - أخبار مكة ج ١ ص ٤٤١

(٧) البلاذري - أنساب الاشراف ج ٥ ص ١٠٨

(٨) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٤

(٩) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٤

(١٠) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٣٣.

وقد ارتفعت الاسعار في هذه الفترة فيروى عن محمد بن سيرين ان النخلة بلغت على عهد عثمان بالف درهم^(١).

وقد خصص المسعودي فصلاً لذكر الثروات الكبيرة في عهد عثمان ثم انه عاد وقارن الوضع بما كان عليه الخليفة عمر حين حج مرة فانفق في ذهابه وايابه ستة عشر ديناراً وقال لابنه عبدالله: (لقد اسرفنا في نفقنا في سفرنا هذا)^(٢). ولكن يبدو لنا ان اغلب هذه الثروات لم تكن مصادرهما غنائم الفتوح او عطايا عثمان التي اقتصرت على عدد محدود من الافراد فقط. فغنائم الفتوح لم تكن بالكثرة بحيث تكون هذه الثروات ثم ان التفاوت بين أكبر عطاء وأصغره لم يكن كبيراً والظاهر أن أغلب مصادر هذه الأموال كانت من التجارة والزراعة فعدد كبير من اهل البلاد كانوا يحترفون التجارة وقد ثمروا اموال الفتوح والعطاء في التجارة والزراعة فاصبحت لديهم هذه الاموال. ولا ننسى ان البعض منهم كانت لديه الاموال منذ العصر الجاهلي واستمر في صدر الاسلام ولم يكن وجودها مستجداً في عصر عثمان. ويبدو لنا ان نظرة الفرد العربي تغيرت عما كانت عليه سابقاً فتغير مجرى صرف الاموال تبعاً لذلك كما رأينا في اقتناء القصور والضياع والعييد.

● التطور الاجتماعي في العصر الاموي

□ السياسة الاموية

ذكرنا سابقاً ان ظاهرة الثراء لدى بعض الجماعات تركت بعض الاثر الواضح منذ عهد الخليفة عثمان ولكنها لم تؤد الى نتائج عملية واضحة المعالم وعلى نطاق واسع. ذلك لأن المجتمع كان في فترة انتقالية بين البداوة والحضارة وبين القديم والجديد ونظراً للظروف التي غلفت ذلك المجتمع فنرى ان تلك الفترة لم تكن مهيئة للاقتباس الجديد.

(١) ابن سعد-الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٤٩ ط ليدن - حدد علي بن ابي طالب. المستوى الوسط بقوله (مادون اربعة

نقعة وما فوقه كنز) ابن قتيبة عيون ج ١ ص ٢٤٥.

(٢) المسعودي - مروح الذهب ج ٢ ص ٣٣٤.

ولكن التغيير السياسي المتمثل في انتقال الخلافة من المدينة الى دمشق وما رافقه من حوادث الفتن والحروب الاهلية التي ايقظت بدورها الخصومة بين بني هاشم وبني امية وتبلورت بشكل آخر بفعل العصبية بين ولاة الامور واهل الحجاز، كل ذلك دفع حكام الامويين الى اتخاذ خطة قوية في سبيل الاحتفاظ بحكمهم وابعاد ابناء الذين أسسوا الدولة الاسلامية عنه. وهم الذين عرفوا بالاتجاه الاسلامي في الحكم والذي يصطدم مع سياسة الملكية الوراثية المستبدة التي سار عليها حكام الامويين. فعمدوا الى ابعادهم عن السياسة واشغالهم بامور اخرى بصورة مباشرة او غير مباشرة وحجزهم داخل الحجاز خوفا من الفتن وقد شبه الدكتور طه حسين خلفاء بني امية بقياصرة الرومان الذين كانوا يضيقون على شباب الارستقراطية الرومانية في ايطاليا^(١) وكانت وسيلتهم في تنفيذ هذه السياسة اغداق الاموال على اهل البلاد وخاصة الاشراف منهم. واستمرار العطاء على المشمولين به ولكن بدون تقديم اي عمل او انتاج.

وبدأ بهذه السياسة الخليفة الاموي الأول معاوية الذي عرف بصفات اللين والحلم وضبط النفس في اكمل صوره، فتراه يسيطر على الامصار الاسلامية وبينها الحجاز وهو لم يفتحها بحد السيف بقدر ما وصل اليها عن طريق شرائها باموال. فهو حين صالح الحسين بن علي بن ابي طالب جعل له ما في بيت مال الكوفة وخارج دارا بجرد.^(٢)

وكان يجيز كل من الحسين والحسين ابناء علي، وعبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر سنويا ألف ألف درهم فضلا عما يعطيه للوافدين عليه منهم من انية الذهب والفضة وغيرها من الهدايا،^(٣) وكان يستخدم الاموال للوصول الى اغراضه فيروى انه سمع كلاما فيه غلظة من عبدالرحمن بن ابي بكر الصديق فلم يكن ليعاقبه وانما استدعاه وقال له : (مرحبا بك يا ابن الشيخ الصالح قد علمت ان الذي خرج منك كان لجفائنا بك ولناى دارنا عن دارك فارجع حوائجك ، فقال ، علي من الدين كذا واحتاج الى كذا واقطعني كذا-

(١) حديث الاربعاء ج ١ ص ٢٦٤

(٢) الطبري - تاريخ الرسل والملوك. ج ٢ ص ٤

(٣) الابشيهي - المستطرف في كل فن مستطرف ج ١ ص ٥٨ قدم اليه ابن عباس فاهدي اليه من هدايا النوروز وحللا كثيرة وانية من الذهب والفضة وكان يغدق على الحسن الاموال الكثيرة.

التعالي - لطائف المعارف ص ٢٢

فقال معاوية - قد قضيت جميع حوائجك (٧١) ولم تكن لتغضبه خشونة بعض اشرافهم معه وانما يقابلها بالحلم دائما - فيروى الا بشيهي ان لعبد الله بن الزبير ارض تجاوز ارض معاوية وكان فيها عبيد يعملون فدخلوا ارض بن الزبير وغضب وكتب الى الخليفة معاوية يتهدده ويتوعده فلما قرأ معاوية الكتاب كان معه ابنه يزيد الذي طلب منه ان يرسل جيشا اليه يأتيه برأسه ولكن جواب معاوية كان : (أما بعد فقد وقفت علي كتاب ولد حوارى رسول الله (ص) وساء في مأساءه والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه نزلت عن أرضي لك فأضفها بما فيها من العبيد والأموال والسلام) ويوضح لنا الكتاب مدى ضبط النفس والحلم لدى الخليفة كما انه في جوهره كان دبلوماسياً سياسياً وخاصة انه يعرف مركز ابن الزبير في الحجاز . وقد اهتم معاوية بمدينة مكة ولعله أراد ارضاء أهلها أيضاً فقد أجرى في الحرم عيوناً واتخذ لها اخيافاً فكانت حوايط فيها النخل والزروع منها حائط الحمام وحائط عوف وغيرهما (٧٢) وذكر ان معاوية اول من كسا الكعبة بالديباج واشترى لها العبيد، كما أجرى لها وظيفة الطبيب بكل موسم وكان يبعث لها المجرم والخلق في الموسم ورجب (٧٣) و الاخبار كثيرة عن عطايا معاوية لاهل الحجاز في سبيل ارضائهم بصورة مباشرة وغير مباشرة. (٧٤)

وتابع الخليفة يزيد سياسة ابيه - اول الامر - رغم تغير الطباع فعندما اتاه عبد الله بن جعفر وقال له - ان اباك كان يصلني بألف الف سنوياً - قال له - فلك اربعة الاف الف - (٧٥) ولما حاء وفد اهل المدينة وفيهم عبد الله بن حنظلة واولاده الثمانية اعطاه مائة الف ولكل

(١) الازرقى - اخبار مكة ج ١ ص ١٩٠ ط

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف ج ١ ص ١٩٠

(٣) الازرقى - اخبار مكة ج ١ ص ٤٤٣

والاخياف - كما ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل ابن منظور - لسان العرب ج ٩ ص ١٠٢

(٤) الفاسى - شفاء الغرام ج ١ ص ١٢٠ . ١٢٦ - والمجرم - البخور او العود - لسان العرب ج ٤ ص ١٤٤

(٥) الاصفهاني - الاغاني ج ١٥ ص ١١٠

الاصبهاني - حلية الاولياء ج ١ ص ٢٩٦ وج ٢ ص ٤٩

(٦) الثعاللى - لطائف المعارف ص ٢٢

من اولاده عشرة الاف ^(١) وبعث مرة الى عبدالرحمن بن حسان عندما رأى منه جفوة بثلاثين الف درهم ^(٢) كما ان رسوله الى اهل المدينة (قبل وقعة الحرة) قال لهم - (ان لكم في عهد الله وميثاقه عطاءين عطاء في الشتاء وعطاء في الصيف وان اجعل سعر الحنطة عندكم سعر الخبط والخبط يومئذ سبع اصع بدرهم) ^(٣).

وقيل عن الوليد بن عتبة بن ابي سفيان انه عندما تولى المدينة لم يترك فيها فقيراً الا اغناه ولا مديوناً الا ادى عنه دينه ^(٤) وكان والي فارس - عمر بن عبيدالله بن معمر يبعث الاموال الكثيرة الى اهل المدينة وكذلك الثياب المعمرية ^(٥).

واستمر خلفاء بني أمية على هذا النهج السياسي ، فالوليد بن عبدالمكك عندما حج مرة قسم بالمدينة رقيقاً كثيراً وآتية من الذهب والفضة وأمواالا بين الناس ^(٦) ويعتبر الخليفة الوليد أول من ذهب البيت في الاسلام حيث أرسل واليه القسرى ثلاثين ألف دينار وأمره بأن يجعلها صفائح ذهبية على باب الكعبة والاساطين والميزاب ^(٧) وذكر البعقوبي ، ^(٨) انه حين حج سنة ٩١ هـ ليطلع على البيت والمسجد النبوي بعد تعميره قسم أمواالا كثيرة بين أهل المدينة أيضاً ، ^(٩) وحين حج الخليفة سليمان سنة ٩٧ هـ قسم في أهل المدينة أمواالا ثم فرض لقريش خاصة اربعة آلاف فرضه لم يدخل فيها حليفاً ولا مولى فاجتمع مشيخة قريش وجعلوها لحلفائهم ومواليهم فلما علم فرض لهم اربعة آلاف فريضة اخرى ^(١٠) وكان عمر بن عبد العزيز قد تولى المدينة في خلافة الوليد وليس بغافل عن احوالها فنراه - بعد خلافته - يعطي بني هاشم الخمس ويرد قرية فذك الى ولد فاطمة ^(١١) وأكرم ولد علي بن أبي طالب ^(١٢) وعندما بلغه ما يعاينه أهل المدينة في عهده من الجهد جهز اليهم أحمالاً فيها الطعام والاموال والملابس لتوزع عليهم ^(١٣) وروى انه أرسل الى المدينة في ولاية أبي بكر بن حزم امواالا قسمت بين أهلها.

- (١) البلاذري - انساب الاشراف ج ٤ ص ٤٣
- (٢) نفس المصدر ج ٤ ص ١١
- (٣) البيهقي - المحاسن والمساوي ج ١ ص ٤٧
- (٤) الابشيهي - المستطرف ج ١ ص ١١٧
- (٥) الاصفهاني - الاغانى ج ١٥ ص ٢٨٨
- (٦) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ١٢٣٣ ط ابريل سنة ١٨٨٣
- (٧) البعقوبي - التاريخ ج ٣ ص ٣٠
- (٨) نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٣٠
- (٩) نفسه ج ٣ ص ٤١ ط الغزى بالتجف
- (١٠) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٠ وكانت فذك قد اقطعها معاوية لمروان فوهيها الاخير لابنه عبدالعزيز ثم ورثها عمر
- (١١) المسعودي - مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٤
- (١٢) الاصبهاني - حلية الاولياء - ج ٥ ص ٢٢٨
- (١٣) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٧٢

ولم ينقطع العطاء عن اهل المدينة الا سنة واحدة في خلافة هشام بن عبد الملك حين خرج عليه زيد بن علي، وقد اعاده الوليد بن يزيد حين تولى الخلافة^(١). من خلال ماتقدم نرى ان حكام الامويين استخدموا الاموال والعطايا كوسيلة لاسترضاء اهل الحجاز وابعادهم عن الاشتراك السياسي، وقد صور هذه العطايا الشاعر الاحوص عندما قبض من احدهم عشرة آلاف دينار بقوله^(٢):

وما كان مالي طارفاً من تجارة وما كان ميراثاً من المال مقلداً
ولكن عطايا من امام مبارك ملا الارض معروفاً وجوداً وسؤداً

□ ب - الاختلاط بالامم المغلوبة

لم تكن الاموال وحدها قادرة على تهيئة الجو الاجتماعي الجديد، ولكن تبعها عن طريق الفتح عدد عظيم من اهل البلاد المفتوحة الذين دخلوا في الاسلام، ثم ان طائفة كبيرة من السبائا والرقيق قدموا المدينة ووزعوا على اهلها.

ان اختلاط الشعب العربي بغيره من الشعوب كالفرس والروم كان امراً حتمياً ونتيجة لحركة الفتح التي هيات له التطلع الى ما عند تلك الامم من حضارات واساليب الحياة المختلفة التي لم يألفها العرب فضلاً عما حصل عليه الفاتحون من الرقيق الفارسي والرومي - فقد روى الطبري^(٣) ان اول سبي وصل الى المدينة في خلافة ابي بكر ارسله المثنى من عين التمر. وذكر الواقدي (ان سبي قيسارية بلغوا اربعة الاف بعثهم معاوية الى الخليفة عمر الذي قسمهم على يتامى الانصار وجعل بعضهم في الكتاب والاعمال للمسلمين^(٤)) وبدأ هؤلاء الموالي يشتركون في تغيير المجتمع الحجازي فمنهم من عمل بانواع الحرف كالحدادة والنجارة والبناء وغير ذلك مما كانوا يتقنونه في بلدانهم وقد اعطى الشرع الاسلامي للفرد حتى امتلاك ما شاء من الاماء، لذا نرى ان هذه الكثرة التي انحدرت من بلاد مختلفة ومن طبقات اجتماعية متباينة كان لها اثراً كبيراً في شؤون الحياة العامة والخاصة.

(١) الاصفهاني - اغاني ج ٧ ص ٢٢ ط دار الكتب.

(٢) نفس المصدر ج ٩ ص ٨ اخبار كثير - الطبعة المصورة.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٧.

(٤) البلاذري - فتوح البلدان ص ١٤٧ ، ٢٦٣.

وقد وصف ابن خلدون هذا التغيير بقوله: ^(١) (لما ملك العرب فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ... واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في امثال ذلك والتومة عليه افسدوهم علاج ذلك والقيام عليه والتفنن منه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في احواله فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بتطور الحضارة والترف في الاموال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمواني والاسلحة والفرش والانيرو سائر الماعون واخرف فاتوا من ذلك وراء الغاية) .

وينطبق كلام ابن خلدون على ما حدث في الحجاز في هذه الفترة وخاصة ان كثيرا من لساء اصسحت أمهات اولاد . فقد روي عن اهل المدينة انهم كانوا يكرهون ايجاد امهات الاولاد فلما قدم سبي فارس على عمرو كان فيه بنت يز دجرد فهو من واحد من علي فاعطى واحدة لابن عمر فولدت له سالما واعطى الاخرى لولده الحسين فولدت له عليا واعطى اختها لمحمد بن أبي بكر فولدت له القاسم ففاق هؤلاء أهل المدينة علما وتقى وعبادة وورعا فرغب الناس حينئذ بالسراري. ^(٢)

وقد كثرت أعدادهم حتى خشي بعض الصحابة عاقبة ذلك فقد روي عن أبي الدرداء أنه قال عندما فتحت قبرص ونهب منها السبي (اذا سلط الله السباء على قوم فليس له فيهم حاجة) ^(٣)

وقد قام هؤلاء الاقوام بنقل صنوف الحضارة الى المجتمع الحجازي ، ويبدو ان العرب أقبلوا على هذا الاقتباس بحذر واعتدال في العصر الراشدي وخاصة في عهد الخليفة عمر - حيث نرى أثره محدودا وظفيفا ذلك ان المسلمين لازالوا يعيشون مبادئ الاسلام والسنة فضلا للموقف الحازم للخليفة عمر في نبذ هذه الاساليب كما يتضح من قوله (دعوا التنعم وزى العجم) ^(٤) اضافة لانشغال المسلمين بامور الفتح والجهاد، ولكن التأثير بدأ ينتعش في خلافة عثمان ^(٥) ولكن الاحوال السياسية لم تكن لتفتح له المجال الواسع الذي كان له في العصر الاموي .

(١) المقدمة ص ١٤٤ ط بولاق.

(٢) ابن حجر - تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٤٣٧.

(٣) ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٩٧.

(٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ١ ص ٧ - ٣٤ - ٦٩ .

(٥) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٣.

عمالا من الفرس.^(١)

● مظاهر التطور الاجتماعي :

□ البناء : -

من خلال البحث في مجال البناء والعمران نرى ان التعبير طراً اولاً في مواد البناء، فالبيوت عامة كانت مادة البناء فيها الطين واللبن وسقفها من الجريد^(٢) وهو ما كان متوفراً في البلاد قبل الفتح، ويبدو ان التغيير بدأ منذ عهد الخليفة عمر الذي كان يقول : (على كل خائن ائتمان الماء والطين ومربىء يبنى بأجر وجص فقال لمن هذا؟ قالوا لفلان عامل له فقال : تأبى الدراهم الا ان تخرج اعناقها وشاظره ماله)^(٣) وهذا يناقض قول سيد امير علي في ان البيوت في مكة كانت تشيد اما من الحجارة او الآجر وفي المدينة كانت معظم البيوت من الآجر^(٤).

ويبدو من ضالة المعلومات حول العمران انه كان بشكل فردي وعلى مستوى ضيق. وبدأ التطور العمراني يظهر بوضوح في عهد الخليفة عثمان حيث اخذت الطبقة الغنية تشيد القصور والدور بالآجر والجص وتتفنن في زخرفتها وترقيطها بالحجارة الملونة واتخاذ الخشب الساج في ابوابها النخ.

روى المسعودي^(٥) ان سعد بن ابي وقاص بنى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها وجعل اعلاها شرفات، وبنى المقداد ايضاً داراً بالجرف وجعل اعلاها شرفات كما جعلها مجصصة الداخل والخارج.

وقد بنى معاوية بن ابي سفيان دوراً في مكة يقال لها الرقط^(٥) استخدم في بنائها

(١) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٤٤٩-٤٥٢

(٢) ابن سعد - الطبقات الكبرى ج ٨ ص ١٢٠ ط ليدن حول بناء بيوت الرسول ﷺ.

(٣) ابن الاثير - الكامل ج ٣ ص ٥٧ حوادث سنة ٢٣ هـ.

(٤) ابن قتيبة - عيون الاخبار - مجلد ٣ ص ٣١٢.

(٥) مختصر تاريخ العرب ص ٧٢.

(٥) اميرجود الذهب ج ٢ ص ٣٣٣ والجرف - موضع على ثلاث اميال من المدينة نحو الشام - ياقوت معجم ج ٢ ص ١٢٨.

() الازرقى - اخبار مكة ج ١ ص ٤٤٩.

ويبدو ان هناك نهضة عمرانية شملت البلاد حيث امتد البناء في المدينة الى أسفل الوادي وأعلاه ونرى ذلك واضحاً في قول ابن عباس لابن صفوان (هيهات هيهات - تركت والله سنة عمر .. قضى عمر ان أسفل الوادي وأعلاه مناخ للحجاج وان اجياد وقيقتات للمريحين - والذاهبين واتخذتها وصاحبك دوراً وقصوراً ^(١)) وقد بالغوا بالعناية في بناء القصور حتى انها كادت تفوق في هيئتها قصور دمشق عاصمة الخلافة فيروى ان الخليفة معاوية بن أبي سفيان حين حج أحد الاعوام وقف أمام دار عبد الله بن الحارث يتعجب من حسن بنائها فخرج عليه عبد الله قائلاً (لا أشبع الله بطنك أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار ^(٢)) - وقد ذكر السهوي ^(٣) عدداً كبيراً من بينها قصر عروة الذي قال عنه صاحبه (والله لابنيه بناء لا يبلغونه الا بشق الانفس) فبناه وهيل بثاره وقال فيه :

بنيناه فاحسنا بناه فحمد الله في خير العقيق
تراهم ينظرون اليه شذرا يلوح لهم على وضح الطريق
وهذا دليل واضح على وجود تنافس شديد بين الناس - وخاصة الاغنياء منهم في مجال البناء والعمران.

ومن بين هذه القصور: قصر ابي هشام المغيرة بالعقيق والذي كلفه مالا كثيراً ويعرف بقصر بنت المرازقي ثم قصر أبي بكر بن عبد الله بن مصعب الزبيري الذي عرف بالمستقى والذي قال فيه الشاعر:

يا قصر لو كان خالداً احداً بالجود والمجد كان مولاك
وقد بنى سعيد بن العاص بن سعيد قصراً في العرصة وغرس فيه النخل والثمار وقد سميت عرصة الماء وفيها قال الشاعر ابو قطيفة شعره المشهور :
والقصر ذو النخل فالحماء بينهما
كما روى عن سكينه بنت الحسين - انها باعت اموالها بازوراء واستبدلت بها قصراً في العقيق يسمى البريدي ، وروى انها خرجت اليه عندما سال العقيق وجلس على الجرف

(١) الازرقى - أخبار مكة ج ١ ص ٣٩٢ ، واجياد موضع في مكة يلي الصفا وقيقتات جبل بمكة وقيل انها قرية قرب مكة - ياقوت - معجم البلدان ج ١ ص ١٠٥ وج ع ص ٣٧٩
(٢) الاصفهاني - الاغانى ج ١ ص ٢١٩
(٣) وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى ج ٢ ص ١٩٢ - ١٩٨
(٤) وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى ج ٢ ص ٢٠١ - ياقوت - الحموي - معجم البلدان ج ٤ ص ١٠١ العرصة في العقيق قرب المدينة

مع جواربها وقالت : (والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من الزوراء) ^(١)
ويبدوان التطور العمراني شمل أكثر احياء المدينة حيث ان ابا علي الهجري ^(٢) يستعرض
لنا هذه القصور بقوله : (ان سيل الوادي يقضي الى الشجرة التي بها محرم رسول الله ﷺ)
ثم يلي ذلك مزارع ابو هريرة (رض) ثم تتابع القصور بمكة ويسرة بها منازل الاشراف فيها
يتدوون منها منازل عن يمين الجائي من مكة (ومنها) قصر لاسحاق بن ابي ايوب المخزومي
وقصر لابراهيم بن هشام وقصر لال طلحة بن عمر بن عبيد الله ومنازل اسفل منها عن يمين
الطريق لآل سفيان بن عاصم ... ووجهة ذلك في قبالة جماء تضارع منازل لعبد العزيز
بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ثم يليها قصر طاهر بن يحيى ومنازل ولده (ووجهها) في
صير حرة الوبرة مزارع عروة بن الزبير وبئر واسفل منها بئر المغيرة بن العاص واسفل منها ضفائر
قصر مراجل والزينبي قصر سكين بنت الحسين وقصور لغير واحد ثم قصور ابنة المازقي الزهرية
ثم منازل جعفر بن ابراهيم الجعفري ثم يفضي الى بئر دمة وقصور كثيرة بمكة ويسرة .. الخ)
ونلاحظ ان البناء كان في تزايد مستمر ولم يقتصر على طبقة معينة وانما كان هناك حركة
عمرانية تسير طبقات المجتمع .

وشملت النهضة العمرانية - الاماكن المقدسة - ايضاً .

وذكر ان الخليفة عثمان زاد في مسجد الرسول (ص) ووسعه وبناه بالحجارة المنقوشة
وجعل عمده من حجاره فيها رصاص وسقفه من الساج ^(٣) وفي خلافة الوليد بن عبد الملك
تولى عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة عمارة المسجد النبوي حيث بناه بالحجارة المنقوشة
والفسيفساء والمرمر وسقفه بالساج وماء الذهب ووسعه بادخال حجرات زوجات النبي (ص)
فيه . وقد دام العمل فيه ثلاث سنوات ^(٤)

واصاب التغيير المسجد الحرام ايضاً . وكان الخليفة عبد الملك اول من رفع جدران
وسقفه بالساج وجعل في راس كل اسطوانة خمسين مثقال من الذهب ، واكمل ابنه الوليد
حيث ازور المسجد من داخله بالرخام وجعل له شرفات ^(٥) وروى انه (الوليد) ارسل الى

(١) الاصفهاني - الأغاني ج ١٤ ص ١٧٢ أخبار الحسين بن علي .

(٢) السهودي - وفاة الوفاء ج ٢ ص ٢٠١ - وجماء تضارع - هضاب في المدينة - ياقوت - الحموي معجم البلدان

ج ٢ ص ١٥٩

(٣) الطبري - تاريخ الامم ج ٥ ص ٥٦

(٤) ابن رسته - الاغلاق النفسية ص ٦٩

ياقوت الحموي - معجم البلدان ج ٧ ص ٤٣١

البلادي - فتوح ص ٢٠ - ٢١

(٥) الفاسي - شفاء الغرام في اخبار البلد الحرام ج ١ ص ٢٢٥

واليه على مكة ثلاثين الف دينار - ضربت صفائح ذهب على الباب والاساطين والاركان والميزاب (١)

وقد تكون اعمال حكام بني امية هذه ارضاء لابناء الحجاز والمسلمين عامة . فضلا عما يظهره لنا التأثير الحضارى في هذا المضمار.

● الالبسة :

غلبت البساطة وقلة التنوع على الالبسة في عصر الرسالة وعهد ابي بكر وعمر ، وقد طرأ التغيير على الالبسة تبعاً للتغيير الذي طرأ على المجتمع عامة وكان للاقتباس الاجنبى اثره الواضح مع ما هيئته الاموال اللازمة لذلك . وروى ان الخليفة عمر حين ذهب الى الجابية - بعد فتح الشام - (خرج اليه القواد لاستقباله على الخيول وعليهم الديباج والحريز ، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال لهم سرعان ما لقتم عن راياكم) (٢) ، ويبدو ان الذي راه الخليفة كان مستحداً وغريباً لذا رفضه وأخذ يتشدد في سياسته بمنع المسلمين من الخروج الى الامصار الاخرى . وأخذت الاحوال بالتغيير التدريجى حين ولي الخلافة عثمان الذي عرف بسماحته ولينه . فعرف المجتمع انواعاً جديدة من الالبسة منها الملونة والموردة والقز والحريز والديباج والكتان السخ .

ويبدو ان الخليفة عثمان كان ممن يهتم بلباسه ، روى البلاذري (٣) انه رأى مرة وعليه ثوبان معصران ووراءه غديران ومرة عليه خميص سوداء ، واخرى عليه بردا ثمنه مائة دينار ، كما لبس القمصان القوية وغيرها (٤)

ويلاحظ ان الرجال اخذوا يلبسون مطارف الخز ، فقليل عن الحكم بن العاص انه دخل المدينة وعليه فزر خلف ثم دخل على عثمان واخذ يلبس الخز والطيلسان (٥) ورؤى القاسم بن محمد على رحله قطيفة خز وعليه جبة خز خضراء ورداء مصر (٦) وكان محمد بن الحنفية (يكثر من ارتداء مطارف الخز الملونة فعن ابي ادريس قال - قال لي محمد بن

(١) البعقوبي - التاريخ ج ٣ ص ٢٩

(٢) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ١٥٨ حوادث سنة ١٥ هـ وقعة احبارين .

(٣) انساب الاشراف ج ٥ ص ٣

(٤) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٣ و ٨

(٥) البعقوبي - التاريخ ج ٢ ص ١٥٤ ط النجف ١٩٦٤ .

(٦) ابن سعد - الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٤٢ ، ٥٠ ط ليدن .

الحنفية (مامنعك ان تلبس الخزفانه لا بأس به اقلت انه يجعل فيه الحرير) ^(١) وبيدوان بعض الزهاد كان يتخرج من لبس الخزما روى عن الرسول (ص) بتحريم لبس الحرير للرجال .

وقد لبس الرجال ثياب الكتان ، وأول من لبسه زياد بن أبي سفيان ^(٢) ، وروي أن الشعبي كان يلبس الازار الكتان المورد ^(٣) ، وبيدوان أغلب الكتان كان من طبقة الأغنياء فميمون يقول (لا يلبس الكتان الا غني أو غري (غلو) ^(٤) ، كما ساد لبس الطيالة بين الناس ، ذكر عن عروة بن الزبير أنه كان يلبس الطيلسان المزري بالديباج وكذلك سعيد بن المسيب ^(٥) وكان كريب بن أبي مسلم مولى عبد الله ابن عباس وأصحابه يلبسون طيالة طوالاً أزرها بالديباج ^(٦) . ومن مظاهر الترف أيضاً ما يروون عن مروان بن عثمان بن عفان أنه كان يلبس - أحياناً - سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ورداء عدني بثمان ألفي درهم ^(٧) وماروي عن ألبسة الشاعر عمر بن أبي ربيعة الكثير منها ما جاء في كتاب الأغاني : (انه حج عاماً من الأعوام على نجيب له مخضوب بالحناء مشعر الرجل بقراب ومعه جماعة من حشمه وغلماؤه وعليه حلية موشية بجانبه وعلى ابن سريح ثوبان هرويان مرتفعان فلم يمروا بأحد الا أعجب من حسن هيئتهم) ^(٨) .

وبيدوان أغلب الشباب من ذوي الثروات كانوا يجارونه في هذا المضممار . وقد كان عروة بن الزبير يصلي في قميص وملحفة مشتملاً بها على القميص ^(٩) . وعرف سعيد بن المسيب بحبه للتنوع في الألبسة حيث كان يقول : (اصلح قلبك والبس ماشئت) ^(١٠) وقال عنه اسحق بن يحيى - (رأيت سعيد بن المسيب وعليه

(١) نفس المصدر السابق . والصفحة والمطارف اردية من خز مربعة لها اعلام

(٢) البيهقي - المحاسن والمساوي ج ٢ ص ٥٠

(٣) الأصبهاني - حلية الأولياء ج ٤ ص ٣٢٤

(٤) نفس المصدر ج ٤ ص ٨٦

(٥) ابن سعد - الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٩٩ - ١٣٤ ليدن .

(٦) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٢١٦

(٧) الأصبهاني - الاغاني ج ١٧ ص ٨٩ ط الساسي .

(٨) نفس المصدر ج ١ ص ١٠١

(٩) ابن سعد - الطبقات ج ٥ ص ١٣٤ ط ليدن الملحفة ما يلبس فوق سائر الالبسة

(١٠) الأصبهاني - حلية ج ٢ ص ١٧٣

ابريسمان ممشقان وقميص شقائق تخرج يداه من كمه^(١) وقد لبس الرجال الثياب القسي المستورد من الشام ومصر^(٢) كما لبسوا ثياب العصب^(٣) وذكر عن عروة بن الزبير انه كان يلبس في الحرقباء سندسي مبطن بحرير^(٤) واخذ بعض -الاغنياء- يتغالون في شراء الالبسة الغالية الثمن . فيروى أن كسوة بكر بن عبدالله المازني قومت باربعة الاف^(٥) -وكان الشاعر المعروف بالعرجي -احد احفاد عثمان بن عفان- يلبس الحلة بخمسمائة دينار^(٦) كما ان ابن عباس كان يشتري الرداء بألف^(٧) ومثله محمد بن عمرو الذي كان يشتري المطرف بسبعمائة ويلبسه^(٨) كما روى عن عمر ابن عبد العزيز عندما كان واليا على المدينة كان يلبس الثوب باربعمائة درهم ويقول ما اخشنه واغلظه^(٩) وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ويدخل المسجد (فقيل له في ذلك فقال اني اجالس ربي)^(١٠) كما عرف عبد الله بن جعفر بجودة لباسه . فكان يلبس الحبة الخز المنسوجة بالذهب وثمانها ثلثمائة دينار^(١١) وقد حدد عبد الله بن عمر -في هذه الفترة- المستوى الوسط لللبسة وثمانها عندما سأله رجل عما يلبس من الثياب -فقال : (مالا يزديك فيه السفهاء ولا يعتبك به الحلماء .. ما بين الخمسة الى العشرين درهم)^(١٢) ولعل ابن عمر يتكلم بلغة الرجل المتدين البعيد عن حياة الترف التي عمت المجتمع في عصره .

وفي هذا العصر تابع الناس المودة السائدة او الشهرة كما تعارفوا في تسميتها حينئذ ،

-
- (١) ابن سعد- الطبقات ج ٥ ص ١٠٣ وكان أحد التابعين (ابا جعفر محمد) يقول : لأبأس بالاصبعين مع العلم بالابريسم بالثوب ج ٥ ص ٢٣٦ .
 - (٢) البخاري- الصحيح ج ٧ ص ٤٥ وهي ثياب مضلعة فيها الحرير امثال الاترنج .
 - (٣) الاصفهاني -اغاني ج ٩ ص ١١ -في شعر كثير- والعصب برود يمنيه يعصب غزلها ثم يصبغ فيأتي موشيا لبقاء ما عصب منه ابيض لم يأخذ الصبغ .
 - (٤) ابن سعد- الطبقات ج ٥ ص ٣٤ ط ليدن .
 - (٥) الاصفهاني -حلية الاولياء ج ٢ ص ٢٢٧ لا يذكر نوعية النقود درهم او دينار .
 - (٦) الاصفهاني -اغاني ج ١ ص ٣٩٥ .
 - (٧) ابن قتيبة -عيون الاخبار ص ٢٩٨ ط دار الكتب .
 - (٨) ابن سعد- الطبقات ج ٥ ص ٥٠ .
 - (٩) الاصفهاني -الاغاني ج ١٧ ص ٨٩ ، وابن سعد- الطبقات ج ٥ ص ٢٤٦ .
 - (١٠) الاصبهي -المستطرف ج ٢ ص ٢٦ .
 - (١١) الاصفهاني -الاغاني ج ١٢ ص ٢١٩ ترجمة عبدالله بن معاوية ط دار الكتب المصورة .
 - (١٢) الاصفهاني -حلية الاولياء ج ١ ص ٣٠٢ .

قال معمر : (رأيت قميص أيوب السخيتاني يمس الأرض فسألته عن ذلك فقال - ان الشهرة كانت فيما مضى بتذليل القميص وانها اليوم في تشميره ^(١))
ويتضح لنا من رواية ربيعة بن أبي عبد الرحمن : (رأيت مشيخة في المدينة في زي الفتيان لهم الغدائر وعليهم المورّد والمعصفر وفي ايديهم المخاصرو بها اثر الحنا ودين احدهم ابعد عن الثريا اذا اريد دينه) ^(٢) وما ذكره طاوس بن كيسان من انه (رأى فتية من قريش يرفلون في مشيتهم فقال انكم لتلبسون لبوسا ماكانت اباؤكم تلبسها وتمشون مشية ماتحسن الرقاص يمشونها) ^(٣) بأن الترف - في مجال الالبسة - قد عم الجميع شبابا وشيوخا لذا نرى تبعا لذلك ظهور موجة الاعتراض من علماء الدين .
وقد كانت البسة الصوف مرفوضة ومكرهة من المجتمع ذكر الأصهباني ^(٤) عن أبي العالية قوله : (زارني عبد الكريم أبو أمية وعليه ثياب صوف - فقلت - هذا زي الرهبان - ان المسلمين اذا تزاورا تجملوا) ، والخليفة الاموي معاوية عندما دخل عليه النخار العذري مر تديا العبادة احتقره فرد عليه النخار بقوله - (يا أمير المؤمنين ليس العبادة تكلمك انما يكلمك من فيها) ^(٥) حيث كان لبس العبادة مكروهاً ايضاً حينئذ .
أما لباس الرأس فالعرب منذ القديم كانت تستخدم العمائم ، واستمر لبسها في هذا العصر مع شيء من التطور . حيث لبس الناس العمائم المصنوعة من الخز ^(٦) وجعلها بعضهم سوداء ويحليها ببرنسي ارجواني ^(٧) ، وكان محمد بن الحنفية يقيم بعمامة حرقاية ويرخيها شدا او اقل ^(٨) .
ولبس البعض مع العمامة ، القلنسوة ويسدل من الخلف شبراً منها ^(٩) وقد تنوعت الوانها فمنها البيضاء والخضراء ، ومنها ما صنع من الخز ، وروى عن نافع بن جبيرة انه

(١) نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٧ ذكر أيوب السخيتاني .

ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٥ الطبعة الاولى الازهرية .

(٢) ابن قتيبة - عيون الاخبار مجلد (١) ص ٢٩٩

(٣) الاصهباني - حلية الاولياء ج ٤ ص ١٠ ج ١ ص ٣٧٩ ابن سعد - الطبقات ج ٤ ص ٣٩٥

(٤) حلية الاولياء ج ٢ ص ٢١٧ (ابو العالية - احد التابعين -)

(٥) ابن قتيبة - عيون الاخبار مجلد (١) ص ٢٩٧ - المبرد - الكامل ج ١ ص ٢٧٥

(٦) ابن سعد - الطبقات ج ٥ ص ١٤١ ط ليدن .

(٧) ابن سعد - الطبقات ج ٥ ص ١٠٢ ط ليدن كان سعيد بن المسيب يلبس في الفطر والأضحى ذلك .

(٨) نفس المصدر ج ٥ ص ٨٤

(٩) نفسه ج ٥ ص ١٤٦

كان يلبس قلنسوة اسماطا (مسمطة) وعمامة بيضاء (١) ولعل الكثير من الرجال كانوا يرتدونها .

ويستلفت الانتباه في هذا العصر اهتمام الرجال ببعض مظاهر الزينة كالخضاب مثلا حيث نرى أغلبية الرجال كانوا يصبغون رؤوسهم ولحاهم بالحناء والكتم ، وذكر ابن سعد (٢) عدداً كبيراً منهم مثل علي بن الحسين الذي كان يخضب بالحناء والكتم وكذلك القاسم بن محمد ومحمد بن الحنفية ، وكان أبو سلمة عبدالرحمن بن عوف يخضب بالوسمة والسواد ، ومنهم من يصفى لحيته بالدهن . وقد اهتموا بتصفيف شعرهم فيروى عن سعيد بن المسيب ان كان له لحية ليست بالكثيرة قد فرقها (٣) وأخذ الشباب في هذا العصر يصفف شعره وفق مواضع خاصة حتى ذكر ان عمر بن عبدالعزيز (كان اذا صلى الجمعة بعث الحراس وامرهم أن يقوموا على باب المسجد ولا يمر عليهم رجل مصفف شعره لا يفرقه الا جزوه) (٤) .

ومن مظاهر الزينة الاخرى استخدام المسك والطيب باسراف ، فقد ذكر ابن قتيبة (٥) :

(عن أبو الضحى قوله : رأيت على رأس ابن الزبير من المسك ما لو كان لي كان رأس مال) ، وكان ابن عباس يطلي جسده بالمسك ، وروى عنه ايضاً أنه حين أحرم كانت الغالية على صلته كأنها الرب ، وكان ابن مسعود اذا خرج الى المسجد عرف جيرانه ذاك الطيب ريحه . وكذلك عمر بن عبدالعزيز الذي كان يكثر من الطيب ، وقد روي عن طائفة من شباب ذلك العصر انهم كانوا يعطون الدراهم الكثيرة للغسال حتى يغسل ثيابهم في أثر ثياب عمر بن عبدالعزيز من كثرة الطيب فيها (٦) ، وقد أهدى عبدالله بن جعفر الى الخليفة معاوية قارورة كبيرة من الطيب وحين سأله كم أنفق عليها ذكر ما لا كثيراً (فقال له هذه غالية فسميت بذلك) (٧) .

(١) نفسه ج ٥ ص ٤٢-٤٦ ، ١٥٢٠ عن نافع بن جبير .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٨٤ ، ١٤٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١١٦٠ .

(٣) نفس المصدر ج ٥ ص ١٠٣ .

(٤) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٨٢ .

(٥) عيون الاخبار مجلد ١ ج ٣ ص ٣٠٣ .

(٦) الأصفهاني - الأغاني ج ٦ ص ٢٦٢ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .

(٧) الابشهي - المستطرف ج ٢ ص ٢٨ .

وكان علماء الدين في هذا العصر يرغبون فيه ولا يرون ما يعارض الشرع فحين دخل رجل على محمد بن المكدر يسأله عن التطيب والتزين وجده قاعداً على حشايا مصبغة وجارته تغلقه بالغالية فقال له:-(يرحمك الله جئت أسألك عن شيء فوجدته فيك- فأجابه- على هذا أدركت الناس)^(١) وكذلك كان مالك بن أنس اذا جلس للحديث يوضع العود فلا يزال يتبخر حتى يفرغ^(٢) .

وقد لبس الرجال الخواتم في أيديهم ونقشوا عليها ما يرغبون^(٣) فكان فص القاسم ابن محمد من فضة مكتوب عليه اسمه واسم أبيه^(٤) واقتنى بعضهم الخواتم الغالية الثمن^(٥) . وعلى الرغم من قلة الروايات التاريخية عن الألبسة ومظاهر الزينة لدى الرجال الا أنها كافية لاعطائنا صورة واضحة عن العصر ، وذلك لأن من عادة المؤرخين دائماً الاهتمام بالخاصة من أبناء المجتمع دون العامة . ومع ذلك فيمكننا القول بأن هناك اهتماماً من الناس عامة بالأناقة والذوق الرفيع والافتباس الأجنبي وترك ما كان عليه السلف من البساطة في الهيئة .

● الألبسة النسائية :

أخذت المرأة حظاً من فنون الزينة المختلفة سواء في ملابسها أم في حليها وعلى الرغم من ان المؤرخين لا يوردون لنا الأمثلة العديدة عن ذلك لأن المرأة لم تكن تبدي زينتها ، ولكن تصوير الاختلاط ونتاجه الذي ظهر في الشعر قد أجلى لنا بعض جوانب الموضوع . ان الزي الذي كانت ترتديه النساء بصورة عامة هو-الصدر والمحول- وهما قميصان قصيران لا أكمام لهما ودونهما السراويل- وفوق الصدر الدرع -وهو جلباب شامل يحيط بدثارها ويلبس النطاق دون الدرع- تشده على وسطها- ثم تلبس الحلة-وهي

(١) ابن عبدربه -العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٦ الطبعة الأولى سنة ١٣٢١ هـ .

(٢) امين الخولي-مالك بن أنس ص ٢٥٠ .

(٣) ابن قتيبة-عيون الاخبار ج ١ ص ٣٠٢ .

(٤) ابن سعد-الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٤١ ط ليدن .

(٥) الاشبهى-المستطرف ج ٢ ص ٢٨ اشترى ابن عمر بن عبدالعزيز فض خاتم بألف دينار فكتب اليه ابن عمر (عزمت عليك الا مابعت خاتمك وجعلتها في بطن جائع) .

ثوب يظاهاه ثوب آخر يغلب ان يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً. (١)
 وظهرت في العصر الأموي الثياب المروية والقوهية المستوردة يقول ابن سعد (٢)
 (ان المنذر بن الزبير قدم من العراق فارسل الى أسماء بنت أبي بكر بكسوة من ثياب مروية
 وقوهية رفاق غتاق) ، والألبسة المصنوعة من الخز قال العرجي في صاحبته .
 احاطت كساء الخز عن حروجهها وأدنت على الخدين برداً مهلهلاً
 وأكثر النساء من لبس القمص الاسكندرانية الرقيقة والقوهية المعصفرة حتى تكاد
 تشف عن اجسامهن (٣) ولبس بعضهن الديباج والقصب فهذا الشاعر عمر بن أبي ربيعة
 يصف اتراب الثريا صاحبته بقوله :
 يرفلن في مطرفات السوس آونة وفي العقيق من الديباج والقصب (٤) .
 ولبس بعضهن نوعاً من الثياب تدعى -الأتب- وهو مشقوق الوسط تلقية المرأة على
 عنقها من غير كمين ولا جيب ولعله كان من البسة الرجال أيضاً لأن الشاعر يقول
 وتلبس للجارات أتبا ومئزرا ومرطاً فبئس الشيخ يرفل في الأتب (٥)
 ولبس الخمر الرقيقة لتغطية رؤسهن روي ان تاجراً قدم المدينة يحمل من خمر العراق فباع
 الجميع الا السود فشكى ذلك الى الدارمي فعمل له بيتين من الشعر وأمر بأن يغني بهما في المدينة منه
 قل للمليحة في الخمار الاسود ماذا فعلت براهب متعبد
 فشاع الخبر في المدينة فلم تبق مليحة الا اشترت خمارة اسود. (٦)

وعلى الرغم من قلة الروايات التاريخية عن البسة المرأة يبدو ان اغلب الالبسة كان
 يتسم التطور والذوق الغريب والاسراف ويظهر ذلك واضحاً من كلام ام المؤمنين عائشة (رض)
 التي عايشة التحول بقولها عن البستها : (اما والله ما كان خزا ولا قزا ولا ديباجا ولا قطناً
 ولا كتناً ... كان سداه من الشعر ولحمته من وبر الابل) (٧) .

(١) عبدالله عفيفي- المرأة العربية في جاهليتها واسلامها ج ١ ص ١٢٦

(٢) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ١٨٤ ط ليدن .

(٣) الأصفهاني- الأغاني ج ٧ ص ١٤٣ ، ابن عبد ربه- العقد ج ٣ ص ٢٨٠ و ٢٦٣

(٤) جبور- حياة بن أبي ربيعة ج ٢ ص ٣٦ ، الأصفهاني- الأغاني ج ١ ص ٤٠١

(٥) الأصفهاني- أغاني ج ١ ص ٤١٥

(٦) الابشيهي- المستطرف في كل فن مستظرف ج ٢ ص ٢٦

(٧) ابن عبد ربه- العقد الفريد ج ٣ ص ٣٩٤

ومن لواحق الزينة لنساء هذا العصر التطيب ، ويذكر لنا ابن سعد^(١) بان نساء من الانصار- في عصر عمر- كن يشتري العطر من اسماء بنت مخزبة التي كان ابنها عبدالله بن أبي ربيعة يبعث اليها بعطر من اليمن . اما في العصر الاموي فقد ظهر في هذا المجال ايضاً- روى أن رقية بنت عبدالواحد انها كانت تطوف وتقبل الحجر الاسود وفاحت منها رائحة المسك حتى عجب كل من في المسجد وكأنها فتحت بين اهل المسجد لطيمة عطار^(٢)

ويصف جميل عطر صاحبه بثينة بقوله :

كأن فتيت المسك خالط نشرها تغل به اردانها والمرافق^(٣)
وعلى نحو ذلك بالغ أغلبهن بالترين بالحلي والمجوهرات فيصفهم سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت بقوله :^(٤)

حليـن مرجان البحور وجوها كالحر فيـه على النحور ينظم ..
وروى عن سكينـة بنت الحسين انها كانت تلبس الدر الكثير^(٥) وجاء في اخبار عائشة بنت طلحة ان زوجها مصعب بن الزبير دخل عليها وهي نائمة ومعه ثمانـي لؤلؤات ثمنها عشرون ألف دينار فانبهـا ونثر في حجرها فقالت-نومتي كانت احب الي من هذا اللؤلؤ.^(٦)

وكان للرائقة جارية خالد بن عبدالله القسري ياقوته حمراء يخرج طرفاها اشتريتها بثلاث وسبعين ألف دينار^(٧)

ويظهر من شعر عمر بن أبي ربيعة ان كثيراً من النساء كن يتحلين بالجواهر حيث يصف اتراب الثريا صاحبه بقوله :^(٨)

-
- (١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٢٢٠ ط ليدن .
 - (٢) الأصفهاني-الأغاني ج ٥ ص ٩٦ أخبار ابن قيس الرقيات ط المصورة عن
 - (٣) نفسه ج ٨ ص ١٢٤ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .
 - (٤) نفسه ج ٨ ص ٢٧٣ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .
 - (٥) ابن قتيبة-عيون الاخبار ج ٤ ص ٢٥
 - (٦) الاصفهاني-الآغاني ج ١١ ص ١٨٢ ، ج ١ ص ٣٩٣ أخبار ابن محرز .
 - (٧) الاشبهـي-المستطرف ج ٢ ص ٢٨
 - (٨) جبور-حياة عمر بن أبي ربيعة ج ٢ ص ٣٦

ترى عليهن حلي الدرمتسقا مع الزبرجد والياقوت كالشهب
ولبس بعضهن الدمالج في معاصمهن والخلاخيل في أرجلهن ، ^(١) وروعن الثريا
بنت عبدالله بن الحارث صاحبة الشاعر ابن أبي ربيعة انها كانت تتختم في أصابعها
العشرة ^(٢) ولعل كثيراً من النساء كن يفعلن مثلها .
وأخذت فئة من النسوة يصففن شعرهن وفق موضوعات خاصة مثلما شاع عن الجمرة
السكنية-نسبة الى سكنة بنت الحسين- التي كانت تصفف شعرها بشكل جميل حتى
انتشر بين الرجال والنساء وفتن البعض بهذه الموضة فانكرها عمر بن عبدالعزيز وقاومها
بين الرجال . ^(٣)

● الأطعمة

كانت أطعمة العرب في صدر الاسلام بسيطة وقليلة التنوع نظراً لقلة الموارد المالية
ولعدم معرفتهم بصنوف الأطعمة ٢ ولكن التطور الذي طرأ على المجتمع نتيجة للفتوح
والاختلاط جعل العرب يتطلعون الى أطعمة الأمم الأخرى ويقلدونها- جاء في المستطرق ^(٤)
(كانت العرب لاتعرف الألوان انما طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتى كان زمن معاوية
فاتخذ (الألوان) ويؤكد ذلك مارواه الطبري ^(٥) : (بان خالد بن الوليد عندما غزا قرى
أليس على الفرات وقف على الطعام ونقله للمسلمين ... وجعل من لم يعرف الأرياف
والرقاق يقول- ماهذا الرقاق البيض فيرد عليهم الآخرون بأنه رقيق العيش) .
- كما رأى المسلمون في كسكر نوعاً من الأطعمة يدعى النرسیان فأكلومنه وبعثوا بخمسة
الى الخليفة عمر وكتبوا اليه : (ان الله اطعمنا مظاهم كانت الاكاسرة يحمونها وأحبينا ان
ترونها لتذكروا انعام الله وفضاله) ^(٦)

(١) الاصفهاني- الاغانى ج ١٥ ص ٨ الطبعة المصورة عن دار الكتب يقول خالد بن يزيد عن رحلة
تحول خلاخيل النساء ولا ارى لرملة خلخالاً يحول ولا قلباً

(٢) الاصفهاني- اغانى ج ١ ص ٩١

(٣) نفسه ج ١٦ ص ١٤٤ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .

(٤) - الاشبهي- ج ١ ص ١٧٧

(٥) - تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ١٠ حوادث سنة ١٢-١٣ هـ

(٦) - نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٦٥

- ورأوا في اذربيجان أيضاً الخبيص (٨) .
 - وأخذت أحوال المسلمين بالتحسن التدريجي منذ خلافة عثمان حيث كان نفسه يعجبه مطاب من الطعام ، ويروى عن عمر بن أمية الضمري قوله :
 - (كنت أتعشى مع عثمان خزيراً من طبخ من اجود ما رأيت فيها من بطون الغنم وادمها اللبن والسمن فقال لي عثمان كيف ترى هذا الطعام - قلت - هذا أطيب ما أكلت قط - فقال - رحم الله ابن الخطاب - أكلت معه هذه الخزيرة ؟ - قلت نعم - فكادت اللقمة تغرت بين يدي وليس فيها لحم وكان ادمها السمن ولا لبن فيها - قال عثمان - صدقت ان عمر (رض) اتعب من تبع اثره (٩) . ولكن عمر كان يقول وهو يقدم الخبز اليابس بغير ادام لضيوفه : (لو نشاء للمأنا هذه الرحاب من صلائف وسبائك وصناب ولكني رأيت الله تعالى نعي على قوم شهواتهم) (١٠)

فالخليفة عمر كان يميل الى الزهد في الحياة من شتى جوانبها وكان يطلب من رعيته أن تتبعه في هذا المضمار .

لذا نرى أن الخبيص كثر في خلافة علي (رض) فنراه يصور ذلك الاقتباس عندما قدم منه الى ضيوفه بقوله : (ان الاسلام ليس بىكر ضال ولكن قريشاً رأيت هذا فتناجزت عليه) (١١) ، والخليفة علي عرف بزهده في الحياة أيضاً متبعاً نهج ابن الخطاب ولكنه لم يكن يمنع الناس من هذا الاقتباس فنراه يصف الفالودج عندما قدم اليه بقوله : (انك طيب الريح حسن اللون طيب الطعم لكن أكره أن أعود نفسي مالم تعتدده) (١٢) . واتخذ الناس في العصر الاموي أنواعاً جديدة من الطعام منها السكباج الذي نعتوه بأنه سيد

(٨) - ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ١٠١ والخبيص نوع من الحلواء المخلوطة ابن منظور - لسان العرب ج ٧ ص ٢٠

(٩) - العقاد - عثمان بن عفان ص ٦٦

(١٠) - ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ١ ص ٧ - والصلائف ماعمل بالنار طبخا والسبائك ما يسبك من الدقيق فيؤخذ خالصه - حيث يريد به الحواري - والصناب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب واللحم - الكامل - المبرد ج ١ ص ٧٤ .

(١١) - الاصبهاني - حلية الاولياء ج ١ ص ٨١ - ٨٢

(١٢) - نفس المصدر السابق ج ١ ص ٨١ . ١٠٠

الابشيهي - المستطرف ج ١ ص ٢١٠ وصف الحسن البصري الفالودج بأنه لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن .

المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد^(١) وهو نوع من المرق باللحم والخل ، وعرفوا اللوزينج وهو نوع من الحلوى يحشى باللوز والسكر^(٢) . كما عرفوا النقانق المحسنة بالخردل وهي معي الغنم المحشو والمقلي ، وكذلك السنبوسج وهورقاق معجون بالسمن أو الشيرج ويحشى بقطع اللحم والجوز^(٣) . كما اختص البعض في صنع طعام الولايم^(٤) ، وأصبح البعض لا يستغن عن أكل الفواكه بعد الطعام حتى روي عن بعضهم : (انهم اذا طلبوا فاكهة ولم يجدوها في بلدهم استحضروها من الشام^(٥) . وقد أكل الأغنياء منهم في آنية الذهب والفضة^(٦) .

○ اللهو والترف :

اتجه المجتمع الحجازي في هذا العصر نحو البحث عن وسائل اللهو والتسلية بمختلف أنواعه - ونجد ان أهم مظاهر اللهو بروزاً هو الغناء .
والعرب كانت تعرف الغناء قبل الاسلام وبعده على الرغم من وجود حديث عن أنس بن مالك ان الرسول (ص) قال - (بعثني الله عز وجل هدى ورحمة للعالمين وبعثني لأمو المزامير والمعازف ..)^(٧) ولكننا نرى الرسول (ص) يجهز الغناء في المناسبات^(٨) وقد عرف العرب منذ القدم الحدا الذي تسرع الابل عند سماعه وغناء النصب الذي يلهون به في أسفارهم^(٩) .

(١) - الابشهي - المستطرف ج ١ ص ١٧٧ . الاصبهاني - حلية ج ٣ ص ١٠٠

(٢) - زيدان - التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٧٨

(٣) - الاصبهاني - الاغاني ج ١ ص ٨٨

(٤) - نفسه ج ٤ ص ٤٠٨

(٥) - ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ٢٤٢

(٦) - ابن سعد - الطبقات ج ٤ ص ١٢٦

ابن عبد ربه - العقد ج ١ ص ١١١

(٧) - ابن الاثير - أسد الغابة ج ١ ص ١٤٦

(٨) - البخاري - الصحيح ج ٦ ص ١٤٠ . الاصبهاني - حلية الأولياء ج ٣ ص ١٢٠ وج ٦ ص ٣٤٠ . ابن الاثير -

أسد الغابة ج ٤ ص ٦٤ . ص ٢٠٢

(٩) - ابن الاثير - أسد الغابة ج ١ ص ١٢١ . ١٧٣ . وج ٢ ص ١٦٢

ولكننا اذا نظرنا للجوالغنائني الذي عاشته الحجاز في هذا العصر نراه من نوع جديد ومصادره أجنبية ^(١) نهض به الرقيق الغريب الذي ورد بوفرة الى هذه البلاد من أمثال ابن سريح وابن مسجح وطويس وسائب خاثر ونشيط ومعبد والدلال وجميلة وعزة الميلاء وغيرهم من الموالي ، وأقبل الناس عليه اقبال الضمان للماء حتى شهر الحجاز به وطبيعي لمثل هذا الشباب الذي حبل بينه وبين العمل والذي يمتلك بعضه الثروات ويأتيه الآخر عطاء بانتظام ان لم يوجه لأعمال مجدية ودراسات فكرية توجه الى اللهو والترف . وهو ما كان يبغيه الحكام الامويون .

أما أول ابتداء الغناء في المدينة فقد روي أن عبدالله بن عامر اشترى اماءاً صناعات وأتى بهن الى المدينة فكان هن يوم في الجمعة يلعبن فيه فسمع الناس منهن وأخذوا عنهن . ثم قدم رجل فارسي يدعى نشيط فغنى وأعجب عبدالله بن جعفر فقال له سائب خاثر أنا أصنع مثل غنائه بالعربية ^(٢)

ويبدو ان الغناء في المدينة بدأ في عهد معاوية على الرغم من ان المسعودي ^(٣) يورد ظهوره في عهد ابنه يزيد ، فابن الكلبي ^(٤) يروي بأن معاوية قدم المدينة مرة وأمر صاحبه بالاذن للناس فخرج الاذن ثم رجع فقال (ما بالباب احد فقال معاوية - وأين الناس - قال عند ابن جعفر) يسمعون الغناء .

وكان للمدينة قصب السبق في هذا المضمار حيث نرى أبا يوسف القاضي يقول للزهرى - (ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني ما منكم شريف ولا دنيء يتحاش عنها) ، ^(٥) ويبدو ان الأشراف احتضنوه قبل العامة فاقتدى العامة بهم فابن صفوان يعاتب عبدالله بن جعفر بقوله (يا أبا جعفر لقد صبرت حجة لفتياننا علينا اذا نهيناكم عن الملاهي قالوا هذا ابن جعفر سيد بني هاشم يحضرها ويتخذها) ^(٦) والروايات عديدة عن ولع ابن جعفر بالغناء وحضوره مجالس المغنين قال أبو عباد (اتيت جميلة وكان لي موعد ... فاذا مجلسها غاص ... فبينما نحن كذلك اذ اقبل ابن جعفر وكانت جميلة شديدة

(١) - الاصفهاني - الاغاني ج ١ ص ٢٥٩ وج ٣ ص ٨٤ . ٨٦

(٢) نفس المصدر السابق ج ٨ ص ٣٢١ ذكر سائب خاثر - الطبعة المصورة .

(٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٧٤ وج ٣ ص ١٥

(٤) الاصفهاني - الاغاني ج ٨ ص ٣٢٤ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٣

(٦) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٢

الفرح فقامت والناس فتلقتة وقبلت رجله ويديه وجلس في صدر المجلس ... واندفعت تغني بعودها فما سمعت منها قبل ولا بعد .. ^(١) ففسح ابن جعفر والقوم معه)
 وكان الحسن بن الحسن بن علي مولعا بالغناء أيضاً وغنه رواية ظريفة يرويها صاحب الأغاني مصوراً فيها مجال اللهو خير تصوير حيث يقول (سال العقيق مرة ... وخرج الناس وخرج ابن عائشة المغني فجلس على قرن البثر فيبينما هم كذلك اذ طلع الحسن بن الحسن ومعه غلامان اسودان وقال لهما امضيا حتى تقفا على قرن البثر الذي عليه ابن عائشة ... ثم قال له الحسن انظر الى جنبك - فنظر العبدان - فقال الحسن - فهما حران لئن لم تغن مائة صوت لامرهما بطرحك بالبثر - وهما حران لئن لم يفعلا لأقطعن ايديهما فاندفع ابن عائشة يغني حتى غنى مائة صوت - قال حرير فما رأي يوم أحسن منه .. وما بلغني ان أحداً تشاغل عن استماع غنائه بشيء ولا انصرف لقضاء حاجة حتى فرغ وتبادر الناس من المدينة وحولها ... ثم انصرفوا يزفونه الى المدينة زفاً) ^(٢) .
 وكان ابن أبي عتيق يشد الرحال من المدينة الى مكة حيث يسكن الغريض في احدى ضواحيها لسمع غناؤه ويقيم عنده أياماً ويجزله بهداياه ^(٣) وقد عرف بأنه كان وكيل دفاع للمغنين يسعى لدى الخلفاء ليكفوا عنهم ^(٤) وذلك النعمان بن بشير الأنصاري الذي كان يذهب بنفسه الى دار عزة الميلاء لسماع غنائها ^(٥) . وكان عمر بن عبدالعزيز يعجبه الغناء أيضاً (عندما كان والياً) وقد صنع سبعة ألحان يذكر فيها سعاد ^(٦) .
 ولم يقتصر الاعجاب على الرجال بل شاركهن النساء أيضاً منهن سكينه بنت الحسين التي استضافت في قصرها المغني العراقي حنين الذي دعاه مغنو المدينة وأذنت للناس أذنأً عاماً وغصت الدار بهم وغنى لهم ما طاب لهم ... ^(٧) .
 ولما غناها الغريض وابن سريح (عوجي علينا ربة الهودج) قالت (مامثلكما عندي

(١) الاصفهاني - الاغاني ج ٨ ص ١٩٧ الطبعة المصورة .

(٢) الاصفهاني - الاغاني ج ٢ ص ٢٠٦ أخبار ابن عائشة .

(٣) نفسه ج ٢ ص ٣٨١

(٤) نفسه ج ١٦ ص ٢٠ ، ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٨ الطبعة الازهرية .

(٥) الاصفهاني - الاغاني ج ٣ ص ١٣

(٦) نفسه ج ٩ ص ٢٥٠

(٧) الاصفهاني - الاغاني ج ٢ ص ٣٦٨

الا كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجواري الحسان لا يدرى أي ذلك أحسن (١).
كما أن بعض الفقهاء والقضاة من أهل هذا البلد استحسنا الغناء فيروى عن عطاء بن
أبي رباح تلميذ ابن عباس انه لقي ابن شريح بذى طوى وأسمعه صوتاً من غنائه فاضطرب
اضطراباً شديداً وحلف أن لا يكلم يومه أحداً الا بالشعر الذي غناه فيه وعاد الى مكانه في
المسجد الحرام والناس يسألونه عن الحلال والحرام فلا يجيبهم بشيء الا أن يضرب احدى
يديه على الأخرى وينشد ذلك الشعر (٢).

وللفقيه ابن جريح رواية مشابهة حيث كان جالسا في حلقة وحوله اناس عراقيون
يحدثهم اذ مر ابن تيزن المغني فبداه ابن جريح وطلب منه ان يغنيه الصوت الذي غناه في
اليوم الثاني من ايام منى على جمرة العقبة وقطع الطريق حتى انكسرت المحامل . فغنائه واستحسنه
ابن جريح ثم سأل محدثيه ان كانوا أنكروا عليه فعله فقالوا أننا ننكره بالعراق ونكرهه - فأجابهم
بأن لا فرق بينه وبين الحذاء (٣).

وهناك رواية عجيبية يرويها المسعودي (٤) عن أحد قضاة المدينة الذي اتاه رجلاً عراقياً
يطلب شراء جاريته فرفض وسأله عن سبب شرائها فذكر العراقي بأنها تجيد الغناء . فاستدعاها
القاضي وطلب منها الغناء وغنت واحسنت ففرح القاضي بجاريته وغشيه الطرب ولم يدر
ما يصنع فأخذ نعله ووضع على اذنه وجثا على ركبته وجعل يقول (اهدوني الى البيت الحرام
فأنا بدنة حتى ادمى اذنه) ثم قال للعراقي - قد كنا فيها راغبين قبل ان نعلم انها تقول فنحن الآن
فيها أرغب فانصرف الفتى وبلغ الخبر الخليفة عمر بن عبدالعزيز فقال - قاتله الله اشدقه الطرب
وصرفه عن عمله - فقال - نسأؤه طوالت لو سمعها عمر لقال اركبوني اني مطية فبلغ ذلك عمر
واستدعاه والجارية ثم طلب القاضي من الجارية ان تغني فغنت .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر
فطرب عمر وأخذ يستعيدھا ثلاثا وقد بليت دموعه لحيته واعاد القاضي الى عمله .
وهذه الرواية على غرابتها توضح مدى تأثير الغناء في النفوس مهما كانت المستويات وآخر

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٣) الاصفهاني - الاغانى ج ٦ ص ٣٣٩ المصورة .

(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٤ .

من استعرضهم من العباد الذين فتنوا في الغناء (عبدالرحمن بن أبي عمار) الملقب بالقس لعبادته ويروى انه سمع غناء سلامة القس على غير عمد منه اعجب ولما رآها زاد اعجابه وشفق بها ثم قال :

قد كنت اعذل في السفاهة اهلها فأعجب لما تأتي به الايام
فاليوم أعذرهم واعلم انما سبل الضلالة والهدى اقسام (١)
وفي موسم الحج وما لأيامه من قدسية لدى المسلمين الا أن الحياة الوجدانية في اللهو قد خرجت بعض الاحيان عن الالتزام الموجب ، فيروى أن ابن عائشة وقف يغني في الموسم وحبس الناس واضطربت المحامل ومدت الابل اعناقها وكادت الفتنة تقع (٢) .
وهناك روايات تذكر ان بعض هؤلاء المغنين لا يرون حرجا في اداء فريضة الحج ومنها المهرجان الذي وصفه يونس الكاتب عن حج جميلة (٣) .

ويبدو ان السياسة الاموية كانت تعمل بطرق مباشرة او غير مباشرة لتهيئة هذا الجو بالحجاز ، وكانت طبيعة الخليفة الثاني يزيد مشجعه لذلك الوضع لما طبع عليه من حب الغناء وعطاياه للمغنين وشرائه الجواري المغنيات .

وحين نمي الى عبد الملك بن مروان أن ابن مسجح أفسد فتیان قريش استدعاه الى الشام ولكنه عندما سمع غناءه عذره واعطاه الاموال (٤) وروى ابو الفرج (٥) (ان سليمان ابن عبد الملك حين حج سبق بين المغنين ببدة) ويبدو من الرواية ان الخليفة جاء لاداء فريضة مقدسة وليس لسماع المغنين واجازة الافضل منهم بجائزة ، ولكنها السياسة الاموية في تشجيع هذا الجو .

وبلغت الحجاز شهرة في هذا الفن انتشرت الى البلاد الاخرى فقدم فتیان بني أمية من بلادهم الى الحجاز لسماع غناء معبد وأبن شريح (٦) ووصل جوارى معبد الى الأهواز ونشرت

(١) الاصفهاني - الاغاني ج ٨ ص ٣٣٤ الطبعة المصورة

(٢) الاصفهاني - الاغاني ج ١٨ ص ١٢٧

(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢١٠

(٤) الاصفهاني - الاغاني ج ٣ ص ٢٨٢ أخبار ابن مسجح .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٧

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٠

اغانيه هناك واستمرت شهرة المدينة الى عهد الاديب ابن عبدربه الذي يقول ديننا في السماع دين مديني (١) .

وسار مع الغناء ضرب آخر من ضروب اللهو وهو شرب الخمر ، حيث نسمع أن كثيراً من الشباب يشربون المسكر على الرغم من تحريم الاسلام له - والخليفة معاوية اعترض على مروان بن الحكم حين أقام ضرب الحد على ابن اوطاة الشاعر لشربه الخمر بالمدينة وقال انه ليس بحرام (٢) ، ويذكر المسعودي (٣) ان الناس اظهروا في عهد يزيد بن معاوية شرب الخمر .

وقد ساد شرب الخمر في مجالس الغناء ومواسم سبل العقيق والمنتزهات الخ . ومما يروى في هذا الصدد أن عمر بن أبي ربيعة وفد مع الأحوص وابن أبي عتيق الى دار جميلة فدعت لضيفوها بشراب وشربوا (٤) ، كما جاء في اخبار الهذلي ان فتيان قریش كانوا يأتونه ومعهم الطعام والشراب والدراهم فيجلسي على رأس الجبل ويجلسون تحته في السهل فيشربون وهو يغنيهم حتى المساء (٥) .

وكان والي المدينة ابراهيم بن هشام المخزومي يشرب الخمر مع ابن عائشة وهونديمه (٦) كما كان ابن سيعان الشاعر يشربها مع الوليد بن أبي سفيان ، والوليد بن عثمان مع الوليد بن عتبة (٧) .

واذا تركنا الولاة نرى ان بعض الاشراف ايضاً قارفوا الشراب منهم عبدالله ابن جعفر سيد بني هاشم (٨)

(١) الثعالي - لطائف ج ١ ص ٣٦٣

ابن عبد ربه - ج ٣ ص ٢٣٣

(٢) - الأصفهاني - الأغاني ج ٢ ص ٢٥٠

(٣) المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ٦٧

(٤) الأصفهاني - الأغاني ج ٨ ص ٢٠٨ الطبعة المصورة .

(٥) المصدر نفسه ج ٥ ص ٦٧

(٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٣٦ كان واليا لهشام بن عبد الملك .

(٧) البلاذري - أنساب الأشراف ج ٥ ص ١١٥ - ١١٦

(٨) الأصفهاني - الأغاني ج ٤ ص ٢١٢ وج ١ ص ٢٢٩

وتبعاً لذلك فلا بد ان يكون هناك من يعمل بها وتخبر ببيعها ، وقد ورد ذكر ابن خونك ^(١) (نبادكان بالمدينة) ولعل هناك عدداً من العاملين في هذه الحرفة غيره ويبدو ان اهل الحجاز كانوا يحلون شرب نوع من النبيذ في هذه الفترة التي انتشر شرب الخمر فيها في اغلب البلاد الاسلامية ويؤكد ذلك رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز للمصارع في أمر الانبذة ^(٢) حيث يوضح لنا اختلاف الناس فيما هو محرم ومحلل من انواع النبيذ . ونجد ان الصيغة العامة لهذا المجتمع يغلب عليها عنصر الخزل والمزاح والمرح فنجد للمدينة مضحكاً خاصاً يدعى الغاضري وبعده أشعب وغيرهم ولاشعب شهرته في هذا الصدد حتى ان البعض كان لا يستطيع الاستغناء عن نوادره ويقول في ذلك (ان واليا من ولد عامر بن لؤي كان ابخل الناس ... يطلبني في ليله ونهاره فأن هربت هجم على منزلي بالشرط وان كنت في موضع بعث الى من اكون معه يطلبني منه ويطلبني بأن احده واضحكه) ^(٣) وكان يختلف الى قصور بعض الشريقات انذاك كعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين لنفس الغرض ^(٤)

ولاشك ان هذا النوع من اللهو لا يظهر في المجتمع الا بعد ان توصل الى درجة من الترف حتى يتواجد بين اهله من يتخذ أناسا يضحكونهم .

وأخذ المجتمع حظه من حرية الاختلاط بين الجنسين . وبخاصة عند سيل العقيق حيث يخرج اليه الناس افواجا ويعقدون حوله الانس والطرب . ويلتقي النساء بالرجال على غير عمد وخاصة الشعراء منهم - حيث ان اغلب النساء كن يعجبين بالشعر . فقد جاء عن قيس بن معاذ انه (كان صاحب غزل ومجالسة للنساء فخرج على ناقة يسير فمر بامرأة من بني عقيل ... ومعها نسوة فعرفته ودعونه للتزول والحديث ... فتزل فظل يحدثهن ويناشدهن وهن أعجب شيء به فيما يرى) ^(٥) .

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٧٣ ط المصورة .

(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٣ ص ٣٣٧ الطبعة الأزهرية . يقول في رسالته (أما بعد فان الناس كان منهم في هذا الشراب المحرم امر ساءت فيه رغبة كثير منهم حتى سقوا أحلامهم وأذهب عقولهم ... وان أناسا يصيب ذلك الشراب يقولون شربنا طلاء فلا بأس علينا من شربه . ولعمري ان فيما قرأت مما حرم الله بأسا وان في الاشرية التي احل الله من العسل والسويق والنبيذ والزبيب والتمر لمدوحة عن الاشرية الحرام غير ان كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا نبيذ الا في اسقية الادم التي لازفت فيها ولا يشرب منها ما يسكر) .

(٣) الاصفهاني الاغانى ج ١٧ ص ٩٥ . ١٠٠ . ١٠١ .

(٤) نفس المصادر السابق ج ١٦ ص ٤٨ . ٤٩ ط المصورة .

(٥) المصادر نفسه ج ٢ ص ٢٨ أخبار مجنون بن عامر .

وهناك عدة روايات بجاريها في المعنى ^(١) وأخبار الشاعر عمر بن أبي ربيعة كثيرة في مجال الاختلاط بالمرأة ^(٢) . وقد كانت السيدة سكينة بنت الحسين تقيم المناظرات الشعرية في دارها وتجزئ الفائزين ^(٣) .

• ويبدو أن السفور كان موجوداً في بعض الأوساط فعائشة بنت طلحة تعلل سفورها بقولها (أن الله وسمني بميسم الجمال وأحببت أن يراه الناس ويروا فضله عليهم فما كنت لأستره) ^(٤) ومثلها هند صاحبة أبي دهل الجمحي ^(٥) وغيرها .

• نعا لذلك الجو الظريف فقد ظهرت قصص الحب وصوبها واضحة في الشعر الذي أصبح عادة رائجة على السنة المغمين ويقول المسعودي ^(٦) (لم تكن محبة القوم إذ ذاك لريبة ولا فاحشة) . وهناك روايات عديدة في هذا المضمار ^(٧)

وكان موسم الحج مجالا آخرًا للتعرض للمرأة . حيث أن بعض الشباب لم يكن يقصد من حضور الموسم إلا التعرض للنساء . فهذا ابن قيس الرقيات يتعرض لرقية بنت عبد

الواحد وهي تستلم الحجر الأسود وتقبله فيقول فيها الشعر ^(٨) وحين أرادت أم البنين زوجة الخليفة الوليد الحج . كتب الوليد يتوعد الشعراء إذ تعرضها أو ذكرها أحدهم فقدمت (وتصدى لها أهلاً الغزل والشعر ووقعت عينها على وضاح اليمن فهويته) وقيل أنها طلبت

(١) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٢٢ عن الشاعر نصيب .

(٢) الجاحظ المحاسن والأضداد ص ١٩٢

(٣) البيهقي المحاسن المساوي ج ١ ص ١٦٧ ١٧٠ . الأصفهاني الأغاني ج ١٦ ص ١٦١ . ١٦٣

(٤) الأصفهاني الأغاني ج ١١ ص ١٧٦

(٥) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٣٥

(٦) المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٨

(٧) الجاحظ المحاسن والأضداد ص ١٩٩

(٨) الأصفهاني الأغاني ج ٥ ص ٩٦ أخبار ابن قيس الرقيات .

منه ان ينسب بها .. وغضب عليه الوليد ^(١) وما اكثر أخبار عمر بن أبي ربيعة في مطاردة النساء ومغازلتهم اثناء الموسم حيث يقول عنه ابو الفرج ^(٢) (كان عمر يقدم فيعتمر في ذي القعدة ويحل ويلبس تلك اللؤلؤ والوشى ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمتة ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات غرق محرمات ويتلقى المذيعات الى مرو والشاميات الى الكديد) .

وروى الازرقى ^(٣) ان الرجال والنساء كانوا يطوفون معاً مختلطين حتى ولي مكة خالد بن عبدالله القسرى لعبد الملك بن مروان فذكر انه سمع قول الشاعر

ياحبذا الموسم من موفد وحبذا الكعبة من مشهد

وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الاسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف واجلس الحرس معهم السياط . وكان الترف غالباً على كل شئ حتى في موسم الحج فيروى ان عائشة بنت طلحة كانت تحج في صورة باذخة فعندما ارادت عاتكة بنت يزيد الحج استأذنت عبد الملك فقال لها (ارفعي حوائجك واستظهري فان عائشة بنت طلحة تحج ففعلت وجاءت في هيئة جهدت فيها فلما كانت بين مكة والمدينة اذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها فقالت - ارى هذه عائشة ، فسألت عنها فقالوا - خازنتها ، ثم جاء موكب آخر اعظم منه فقالوا عائشة فضغطتهم فسألت عنه - فقالوا - ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة الى سننها ثم اقبلت كوكبة فيها ثلثمائة راحلة عليها الثياب والهوادج - فقالت عاتكة - ما عند الله خير وابقى ^(٤) فهذه حفيذة معاوية لم تستطع ان تبلغ ما بلغته عائشة في هيئتها وترفها وزهوها وذكر عنها الاصفهاني انها عندما تأيمت كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج الى مال عظيم لها بالطائف وقصر ممتزح تجلس فيه العشيات فتناضل بين الرماة ثم يفد اليها الشعراء فتجيزهم ^(٥)

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١٩

(٢) الاغانى ج ١ ص ٢٢٩

(٣) اخبار مكة ج ٢ ص ٢٠ ط دار الثقافة مكة ١٩٦٥

(٤) - الاصفهاني - الاغانى ج ١١ ص ١٨٨ ط المصورة .

(٥) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٦١ ، ج ١١ ص ١٨٠ - ١٩٠

ومن ضروب اللهو الأخرى اللعب بالشطرنج والنرد ، وكان بعض الفقهاء يحل ذلك بقوله (لأبأس به هورفق) ^(١) وكان بعض الصحابة والتابعين لا يرون حرجاً به ، فابن عباس عندما ختن ابنه ارسل الى اللعابين فلعبوا واعطاهم اربعمائة درهم ^(٢) ويبدو ان هناك نادياً تتوفر فيه وسائل التسلية قال ابو الفرج ^(٣) (ان عبد الحكم الجمحي اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونردات ودفاتر فيها من كل علم وجعل في الجدار اوتاداً فمن جاء علق ثيابه ثم جر كتاباً فيقرأه او بعض ما يلعب به مع بعضهم) .

وفضلاً عما تقدم فان اهل المدينة كانوا مولعين بالصيد وخاصة في بقيق العقيق ^(٤) ، ويروي ان الحجاج كان يشارك اهلها في صيدهم ^(٥) واشتهر الشاعر العرجي في الصيد في مدينة الطائف - حيث لا يحرم الصيد - وكان لديه بستان ويبري السهام من قضبانه /

مما تقدم رأينا ان ثروات كبيرة تجمعت لنفر من الناس منذ بداية الفتوح الى ما بعد قيام الدولة الأموية - وان المؤرخين قد قدروا بعض تلك الثروات بالملايين والمئات الآلاف ومن الجائز ان الناقلين لم يتخروا الدقة في حساب الأرقام ولكننا اذا بحثنا عن مصادر هذه الأموال - والتي ذكرناها سابقاً - نرى ان أغلبها اجتمعت من أموال الفتوح - والعطاء والتي ثمرت في ارباح التجارات وهي التجارة بين الشرق والغرب عن طريق العراق والشام اضافة الى استثمارها في مجال الزراعة - حينئذ يبدو لنا ان الثروات كانت كبيرة فعلاً .

ولكن هذه الثروات لم تكن ظاهرة في المجتمع في السنوات الاولى ، لأن روح الزهد كانت غالباً ما تدفع اصحابها الى الاسراع في توزيعها على مستحقيها من الفقراء والمعوزين ، كما لم تؤد الى الترف الذي يعتبره الاسلام رذيلة مزدراة .

ولكن التغيير ظهر واضحاً في العصر الأموي وبخاصة بعد الاختلاط مع أهل البلاد المفتوحة وتأثر العرب بما رأوه فيها من ضروب الحياة المتنوعة التي لم يألفوها في بلادهم ، ومع

(١) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٣ مجلد ، ص ٣٢٣

(٢) المصدر نفسه ج ٣ مجلد ١ ص ٢٢

(٣) الاغانى ج ٤ ص ٢٥٣

(٤) البكري - زهر الاذباب ص ١٧

(٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٢ ص ١٢٢

اتجاه السياسة الأموية لتشجيع هذه الامور تماشياً مع مصلحتها في اشغال ابناء اهل الحجاز في مجالات اللهو وابعادهم عن المشاركة السياسية والادارية .
ولكن هذه السياسة كان لها أبعاد ايجابية أيضاً حيث قدمت للحضارة العربية في مجال معيناً لا ينضب من الشعر والنثر كفتين جديدين في هذا العصر .

○ مصادر البحث ○

- الابشيهي - محمد بن احمد ابي الفتح ٧٩٠-٨٥٠هـ

المستطرف في كل فن مستظرف جزءان

مطبعة المشهد الحسيني - القاهرة - مراجعة عبدالعزيز سيد الأهل

- ابن الاثير - علي بن محمد ت ٦٣٠هـ

الكامل في التاريخ - دار بيروت للطباعة والنشر

اسد الغابة في معرفة الصحابة

المطبعة الاسلامية . طهران - خمسة اجزاء

- ابن آدم - يحيى ت ١٨٨

الخراج طليدن ١٨٩٥م

- الأزرقى - محمد بن عبدالله بن احمد ت ٢٢٣

اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار

روائع التراث العربي (٢) مكتبة خياط بيروت

وط دار الثقافة - ١٩٦٥

الاصبهاني - احمد بن عبدالله ت ٤٣٠ هـ
- حلية الأولياء وطبقات الاصفياء
ط - دار العربي - بيروت

الاصفهاني - ابوالفرج

الاجاني - الجزئين (٢٠١) اعداد لجنة نشر كتاب الاجاني مصر ١٩٧٠
وطبعة - دار الكتب والطبعة المصورة عن دار الكتب

امين الخولي -

مالك بن انس
طبع دار الكتب - مصر

البخاري - محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ت ٢٥٦ هـ
الصحيح

مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده - مصر

البلاذري - ابي الحسن

- فتوح البلدان - مطبعة السعادة مصر ١٩٥٩
- انساب الاشراف الجزء الاول - ط دار المعارف مصر تحقيق محمد حميد الله
والجزء الخامس - مطبعة القدس ١٩٣٦ .
- ابراهيم بن محمد - احد اعلام القرن الخامس
المحاسن والمساوى

البيهقي

ط دار صادر بيروت ١٩٦٠

- عبد الملك بن محمد ٣٥٠ - ٤٢٩ هـ

الثعالبي

لطائف المعارف تحقيق ابراهيم الابياري وحسن الصيرفي
طبع دار احياء الكتب العربية مصر .

ابن حجر - احمد بن علي ت ٨٥٢

تهذيب التهذيب ط دار المعارف النظامية الهند ١٣٢

ابن ابي الحديد - عرابي حامد عبد الحميد - شرح نهج البلاغة ط دار الكتب مصر ١٩٥٩

الجاحظ عمرو بن بحر ٢٥٥ هـ

المحاسن والاضداد - تحقيق فوزي عطوى - الشركة اللبنانية للكتاب بيروت

١٩٦٩

جبور - جبرائيل سليمان

حياة عمر بن ابي ربيعة - المطبعة الامريكية بيروت ١٩٣٩ م

الديار بكرى - حسين بن محمد ت ٩٦٦ هـ

تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس

ط مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع - بيروت

ابن رسته - احمد بن عمر

الاعلاق النفسية ط ليدن ١٨٩١ م

السكرى - محمد بن حبيب ٢٤٥ هـ

تصحیح الدكتور ايلز ليختن - منشورات المكتب التجاري بيروت

السمهودي - عبد الله بن شهاب الدين ت ٩١١ هـ

ط الاداب والمؤيد - مصر ١٣٢٦ هـ

ابن سعد - محمد ت ٢٣٠ - الطبقات الكبرى - ط ليدن

سيد أمير علي

مختصر تاريخ العرب - دار العلم للملايين - بيروت

الطبري - محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ
المطبعة الحسينية الاولى مصر

طه حسين -
حديث الاربعاء طبع دار المعارف مصر ١٩٦٥

ابن عبد ربه - احمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ
العقد الفريد
المطبعة الازهرية المصرية

عبد الله عفيفي
المرأة العربية في جاهليتها واسلامها
ط القاهرة ١٢٣٩-١٩٢١ م

العقاد
عباس محمود
عثمان بن عفان
مطبعة المدني القاهرة

الفاسي - محمد بن احمد علي ت ٨٣٢ هـ
شفاه الغرام باخبار البلد الجرام

ابن قتيبة
ابو محمد عبد الله ت ٢٧٦ هـ
عيون الاخبار- نسخة مصورة عن ط دار الكتب- المعارف- ط
دار الكتب ١٩٦٠ تحقيق ثروت عكاشة

المسعودي
علي بن الحسين ت ٣٤٦ هـ
مروج الذهب ومعادن الجوهر- ط بيروت ١٩٦٥

ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم ٦٣٠هـ - ٧١١هـ
لسان العرب - ط بيروت ١٩٥٥م ١٣٧٥هـ

ياقوت ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله ت ٦٢٦هـ
معجم البلدان بيروت ١٩٥٥م وط دار بيروت ١٩٥٧م

اليقوبى التاريخ - المطبعة الحيدرية ١٩٦٤